

## الفصل الحادي عشر

### فيتنام : مداد من سياسة الاحتواء.

”عندما أخذتنا الحماسة الوطنية في سنوات كنيدي، سألنا أنفسنا، ما الذي يمكن أن نفعله من أجل وطننا؟ فأجاب وطننا: أقتل الفيتناميين الشيوعيين“

(فيليب كاهوتو)

«إشاعة حرب،

أكره كنيدي خروشوف على التراجع عن موقفه في كوبا، لأن الولايات المتحدة كانت قد حققت تفوقاً تاماً في الأسلحة النووية، وأنظمة إطلاق القذائف، وفي أعالي البحار. بعد انتهاء الأزمة، أقسم السوفييت أنه لن يحدث أبداً أن يعرضوا أنفسهم لمثل هذه المذلة مرة أخرى؛ فبدأوا في برنامج مكثف لتحديث وتقوية أسطولهم، ولبناء أسلحة نووية ذات قذائف عابرة للقارات (ICBM) لنقلها. وكان رد كنيدي و«ماكنمارا» على ذلك، هو زيادة خطى الإنتاج الأمريكي؛ فما كان من الروس إلا أن عجلوا سرعة برنامجهم، وازداد سباق التسلح سوءاً.

عندما كان كنيدي مرشحاً للرئاسة، كان ينتقد سياسة إيزنهاور الدفاعية، لأن إيزنهاور كان يثق في القنابل الكبيرة أكثر مما يجب. وكان هدف كنيدي هو أن يكون قادراً على الرد على أى هجوم شيوعي، على أى مستوى؛ فانطلق لبناء القوة المضادة للتمرد التي يمكنها أن تمحى أى عصيان مسلح، أو ثورة في أدغال آسيا، أو

جبال أمريكا الجنوبية. كان كينيدي يريد أن يثبت للعالم أنه - وفي وجود قوات قمع التمرد معه - لا جدوى لما أطلق عليه حروب التحرير الوطنية، فمن طريق القبعات (البيريهاث الخضراء) - وهو الاسم الذى أطلق على تلك القوات - سوف يفوز الغرب بمعركة الحرب العالمية الثالثة.

ارتكز كينيدي - بشدة - على التكنولوجيا، لكي يتغلب على نقص الأيدي العاملة، وأعطى «البيريهاث الخضراء» الأولوية فى استخدام أحدث معدات الجيش. إن المفهوم - ككل - راق لنزعة كينيدي الطبيعية إلى حكم الصفوة، لأن قوة «البيريهاث» ضمت أفضل الضباط والمتطوعين بالجيش من الشباب، الذين حصلوا على تدريبات إضافية، باستخدام أفضل المعدات، وحازوا على امتيازات خاصة؛ باعتبار أن هذه القوات كانت النظرية العسكرية لفرق حفظ السلام، وكانت مهمتها هى تطبيق الوسائل الفنية والمهارات الأمريكية فى حرب العصابات، وحل المشاكل التى حيرت الفرنسيين. وفى حفل تخرج فى الكلية الحربية الأمريكية الشهيرة «الوست بوينت»، قال كينيدي إنه سيطبق «نمطاً جديداً تماماً من الاستراتيجيات». ومن أعظم محاسن قوات قمع التمرد - خاصة بعد أزمة كوبا - أنها تجنبت المواجهة المباشرة مع الاتحاد السوفيتى، وبذا كانت نسبة مخاطر تصعيد الموقف إلى حرب نووية ضئيلة.

من وجهة نظر كينيدي، ووجهة نظر مستشاريه، ومن وجهة نظر ملايين المواطنين الأمريكيين، فإن الولايات المتحدة ستصبح قادرة على تحقيق ما فشلت فيه الأجناس البيضاء الأخرى؛ لأن الدوافع الأمريكية كانت مجردة من المطامع الشخصية من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن الولايات المتحدة برعت فى دروس حرب العصابات، فلن تحاول أن تسحق العدو، أو أن تخوض حرباً تقليدية بحتة، كما فعل الفرنسيون فى فيتنام. وبدلاً من ذلك، سوف تقوم «البيريهاث الخضراء» بتقديم المشورة للقوات المحلية، بينما تقوم الأجهزة المدنية الأمريكية بمساعدة الحكومات على البدء فى إصلاحات سياسية تتولى فصل رجال حرب العصابات عن الشعب. وستثبت قوات

كنيدى المضادة للتمرد للشعوب أن الأحرار يقدمون حلاً وسطاً بين الاستعمار والشيوعية.

حانت الفرصة العظيمة في فيتنام الجنوبية، وكانت ذات مميزات عديدة فلم يكن «دييم» ديكتاتوراً قاسياً بقدر ما كان مستبداً من الدرجة الثانية. كان أميناً - إلى حد ما - ومخلصاً لوطنيته؛ لقد استهل برنامجاً للإصلاح الزراعي كان نموذجاً يحتذى به، على الأقل على الورق. وكان الأمريكيون موجودين في فيتنام بالفعل، وبصحبهم مستشارون عسكريون واقتصاديون. وأخيراً قدمت فيتنام للبيريهات الخضراء أرضاً مثالية للمعركة؛ حيث كان من الملائم تماماً الدخول في عمليات صغيرة الحجم، إما في الادغال أو في حقول الأرز، وكذلك كان يجب التركيز على كسب عواطف وعقول الناس عن طريق تقديم المساعدات الفنية والطبية لهم. ومن وجهة نظر كنيدي كانت فيتنام المكان الأمثل للتدخل، حيث كان بإمكانه إظهار اهتمامه بالعالم الثالث والإثبات - بالدليل القاطع - أن الولايات المتحدة تنفذ وعودها وارتباطاتها (كانت معاهدة «السييتو»، التي أبرمت في ١٩٥٤ قد نصت على حماية فيتنام الجنوبية، إذا تعرضت لهجوم خارجي)؛ بالإضافة إلى ممارسة اللعبة الجديدة المثيرة: اتخاذ موقف مضاد للتمرد.

كانت الصعوبة الرئيسية الوحيدة تتركز في غموض الوضع القانوني. إن فيتنام الجنوبية كانت دولة مستقلة ذات سيادة؛ فقط لأن «دييم» أعلن ذلك. ولكن وفقاً لشروط معاهدات جنيف، التي عقدت في ١٩٥٤، (والتي لم توقع عليها الولايات المتحدة، وإن تعهدت بالألتجأ للقوة لكي تبطلها) لم تكن فيتنام الجنوبية دولة، وإنما إقليم يتولى الفرنسيون إدارته لحين إجراء الانتخابات. بالإضافة إلى ذلك، نصت معاهدة ١٩٥٤، على أنه يتعين على «هوشي مينه» في فيتنام الشمالية، و«دييم» في فيتنام الجنوبية، ألا يسمحا بدخول قوات أجنبية إلى مناطق نفوذ كل منهما؛ فقامت الولايات المتحدة بإعادة تعريف اتفاقيات جنيف، بحيث اختلقت عمداً أن جنيف قد أنشأت فيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبية. واكتمل ذلك التعريف الجديد في ١٩٦٣،

عندما أدعى «دين راسك» وزير الخارجية: «أن الجانب الآخر ملتزم تماماً - في تسوية جنيف الأصلية التي عقدت في ١٩٥٤، بالترتيبات التي أقتضت أن يكون لفيتنام الجنوبية وجود مستقل».

أما ثاني عقبة أساسية، فكانت طبيعة الصراع. بعد أن انتهى «دالاس» من كتابة معاهدة السيتو، ومدّ نطاق الحماية إلى فيتنام الجنوبية، أكد لمجلس الشيوخ أن الولايات المتحدة لن تطالب - تحت أي ظرف من الظروف - بإخماد ثورة داخلية، أو بالاشتراك في حرب أهلية. وبافتراض أن فيتنام الجنوبية كانت دولة ذات سيادة، أصبح السؤال هو التأكد من مصدر معارضة الحكومة، وهل كان من الداخل أم من الخارج؟ وكان من المستحيل - تقريباً - إجابة ذلك السؤال. فبعد ١٩٥٦ ركز أهالي فيتنام الشمالية اهتماماتهم على إعادة البناء في الأرض التابعة لهم، وعلى إقامة الاشتراكية هنالك. وبعد أن رفض «ديم» إجراء الانتخابات في ١٩٥٦، بدأ «الفيت مينه» يضحرون في الجنوب؛ ومنذ بداية ١٩٥٧ تولوا تنفيذ حملة منظمة لاغتيال رؤساء القرى ليحطموا سيطرة «ديم» على الريف، حيث كانوا يعانون الاضطهاد السياسي، مثلهم في ذلك مثل كل معارضي «ديم»، الذي كان عاجزاً عن التمييز بين الشيوعيين وأعدائهم، في الجماعات التي كانت تقاوم حكومته. وفي أوائل ١٩٦٠، قام ثمانية عشر شخصاً من الأشخاص البارزين - بما في ذلك عشرة من الوزراء السابقين في حكومة ديم - بإصدار بيان للاعتراض على محاياة «دايم» لأقاربه في التعيين في الوظائف.. إلخ، وكذلك على «الاعتقالات المتواصلة التي أدت إلى امتلاء السجون عن آخرها»، وطالبوا بإجراء انتخابات حرة، فما كان من «ديم» إلا أن زج بهم جميعاً في السجون.

في مارس ١٩٦٠ بدأت ثورة واسعة النطاق، وأطلق «ديم» على معارضيه اسم «فيت كوئج» أو الشيوعيين الفيتناميين. وقامت جماعة «الفيت كوئج» بتأسيس «جبهة التحرير القومية - NLF»، كاداتها السياسية، وزادت حدة الصراع رغم ضآلة الدعم الذي تلقاه «الفيت كوئج» من «هوشي مينه» في الشمال - كانت الغالبية

العظمى من «الفيت كويج» من فيتنام الجنوبية، كما أنهم استولوا على معظم أسلحتهم ومعداتهم من جيش «دييم». وفي سبتمبر ١٩٦٠ قام الحزب الشيوعي في فيتنام الشمالية بدعم رسمي لجهة التحرير القومية، وطالب بتحرير فيتنام الجنوبية من الاستعمار الأمريكي.

في ضوء تلك الظروف تزايدت صعوبة إثبات أن فيتنام الجنوبية كانت ضحية اعتداء «خارجي»، ومع ذلك.. فإن وزير الخارجية الأمريكي لم تراوده أية شكوك من أن فيتنام الشمالية كانت ترتكب العدوان، كما لم يتشكك فيما كان معارضا للخطر. إن آراء «راسك» لم تتغير إطلاقاً منذ ١٩٥٠ حين قرر أن الصينيين الشيوعيين «ليسوا صينيين». لقد كان رأيه أن الحرب الدائرة في فيتنام كانت تحت رعاية هانوى التي كانت بدورها تتصرف باعتبارها وكيلاً لبكين؛ فإذا سمحت الولايات المتحدة بأن يفوز «الفيت كويج» في فيتنام الجنوبية فسرعان ما سوف تبتلع الصين كل ما تبقى من آسيا. ومرة تلو الأخرى أخذ «راسك» يحذر الأمريكيين من أخطار «ميونيخ أخرى» في الشرق الأقصى، وبذلك كان يساوى بين «هوشى مينه» وهتلر ويلوِّح بخطر تكرار الشبح المرعب لسياسة المهادنة مثلما حدث مع هتلر عام ١٩٣٨.

على أية حال لقد استمر «راسك» في تكرار التحذير من أخطار ميونيخ أخرى، ولكن فكرة أن يصبح «هوشى مينه» هتلر آسيا؛ كانت سخيفة لدرجة أن الوزير أصبح - تقريباً - مصدر حرج للإدارة الأمريكية. ومع ذلك استمر «راسك» على إصراره، لقد جاء في مذكرات مساعدى كنيدي ما يفيد بأن «راسك» كان مصدراً للسخرية. إذ أشاروا إلى بطء وسطحية تفكيره، وشخصيته المتغطسة، وآرائه الصارمة، لقد صور «آرثر شليسينجر» و «تيودور سورنسن» على أنه شخصية من الماضي، ورجل ما زال واقعاً تحت تأثير كليشاهات أواخر الأربعينات، إذ كان هدف وزير الخارجية الأساسى، هو تطبيق الصين الشيوعية تماماً - كما فعل «أنتيسون» مع روسيا. لقد تعجبوا من إصراره على استخدام القوة العسكرية، وهاجموه بأنه عمز تماماً عن فهم الفكر

الجديد لسياسة كيندى الخارجية. ولكن «شليسينجر» و «سورنسن» أهملوا ذكر أن كيندى هو الذى اختار «راسك» لذلك المنصب - بعد توصية قوية من «أتشيسون» - وأن «راسك» لم يخف معتقداته أبداً.

ومع ذلك، لم يكن «راسك» الوحيد الذى أوصى بتدخل أمريكى فى فيتنام، كما لم يكن قرار إنقاذ «دييم» انحرافاً أو نتيجة مؤامرة. إن كل ما دون فى سجل كيندى، أشار إلى تزايد المساعدات المرسله إلى «دييم»، وأن كل العاملين فى إدارة كيندى - تقريباً - أيدوا القرار. إن هيئة الأركان وافقت على القرار، ولكنها لم تدفع كيندى إلى التدخل فى فيتنام؛ وهو نفس موقف الشركات الأمريكية التى حازت على إمتيازات فى آسيا، ونفس موقف أنصار مبدأ «آسيا - أولاً» من الحزب الجمهورى.

إن الجنرال «ويليام وستمورلاند»، الذى تولى قيادة العمليات العسكرية الأمريكية فى فيتنام الجنوبية من ١٩٦٤ إلى ١٩٦٨، قال - فيما بعد - إنه قبل سفره إلى فيتنام ناقش الموقف مع كل كبار المسؤولين فى البيت الأبيض، ووزارة الخارجية، والبنيتاجون؛ لقد اتفقوا جميعاً على أنه يجب على الولايات المتحدة أن تصد المعتدين من الشمال باستخدام كافة الوسائل الضرورية، ولم يتذكر أى معترض على ذلك خلال هذه الاجتماعات. كما كان هناك اتفاق جماعى على ضرورة أن تثبت الولايات المتحدة للصينيين أن حروب التحرير القومية لم تنجح، وأن تثبت للعالم الثالث أنها لا تتراجع عن التزاماتها. كان مستشارو كيندى المقربين - بقيادة «والتر روستو» و «ماك جورج باندى» - متمسكين بتلك الآراء بمنتهى القوة. ولقد أكد «وستمورلاند» على أن الولايات المتحدة لم تدخل فيتنام، ولم تبق هناك، بسبب مؤامرة عسكرية أو تأمر المجمع الصناعى العسكرى، أو أى شكل آخر من أشكال التأمر. إن خوض الولايات المتحدة الحرب فى فيتنام جاء نتيجة مباشرة لرؤية معينة للعالم لم يختلف عليها أى مسئول فى السلطة، كما جاء هذا التدخل كنتيجة منطقية لسياسة الاحتواء التى كانت قد وصلت إلى ذروتها.

كانت فيتنام حرب الأحرار. وقد اعتمدت على نفس الأسس التي استخدمتها «ترومان» و«أنتشيسون». وعلى حد تعبير «سورنسن»، فإن الولايات المتحدة كانت قادرة على «توفير تدريب، وتدعيم، وتوجيه، واتصالات، ووسائل نقل، ومخابرات، وأسلحة ومعدات، بشكل أفضل» لصد الهجوم الشيوعي. ويفضل المهارات الأمريكية والجنود الفيتناميين (قال كنيدي «إن فيتنام الجنوبية ستقدم الرجال المطلوبين») سوف تعم الحرية في كل مكان.

في بداية ١٩٦١، بدأ كنيدي يرسل مستشاريه إلى فيتنام الجنوبية، لكي يبلغوه بما كان مطلوباً، ولتعليم «دييم» كيفية أداء المهمة. وكان على رأس أول بعثة إلى فيتنام الجنوبية «ليندون جونسون» نائب الرئيس، ورجل السياسة الذي جاء من تكساس، والذي اتسم بالحيوية والنشاط. لقد عاد في مايو ١٩٦١، وهو عاقد العزم على إنقاذ «الأمم»\* من العدو الذي أحاط بها، وأعلن «إن القرار الرئيسي في جنوب شرق آسيا يكمن هنا. لا بد وأن نقرر إذا كنا سنساعد هذه الدول بأفضل إمكانياتنا، أو إذا كنا سنعلن عن عجزنا في المنطقة ونسحب قواتنا الدفاعية إلى سان فرانسيسكو، ونعود إلى مفهوم (القلعة الأمريكية)» ولم يشرح جونسون أبداً كيف سيؤدي سقوط «دييم» إلى طرد الولايات المتحدة من قواعدها الآسيوية الأساسية في الفلبين، و«فورموزا»، و«أوكيناوا»، واليابان، ولاداعي لذكر: «جوام»، و«ميدواي» و«هاواي».

كان فريق كنيدي - مثله في ذلك مثل فريق «ترومان - أنتشيسون» - يشعر أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تتحمل التراجع في أي مكان في العالم. وعلى حد قول «جونسون» في تقريره، إذا لم تقم الولايات المتحدة بمساندة «دييم» سيكون ذلك بمثابة «إبلاغ العالم أننا لا نحترم المعاهدات التي ندخلها، ولا نساند أصدقاءنا» وهي تقريباً نفس الكلمات التي استخدمها كنيدي في وصف أزمة برلين، التي كانت متزامنة معها. كما أن إدارة كنيدي افترضت أنه إذا قررت الولايات

\* الأمم.. هو اسم قلعة في سان أنطونيو بولاية تكساس لقي فيها جنود تكساس الهزيمة على أيدي قوات المكسيك عام ١٨٣٦.  
(المترجم)

المتحدة أن تفعل شيئاً، فلا توجد حدود لما تستطيع هذه الأمة أن تحققه، مما قاد إلى استنتاجات «جونسون»، التي لا مفر منها: «إننى أوصى بأن نتحرك للأمام فوراً، وأن من تقوم بعمل كبير لمساعدة هذه الدول للدفاع عن نفسها»، ولن تكون هناك حاجة للقوات الأمريكية المقاتلة، لأن إرسالها سيكون بالفعل خطأ، لأنه سوف يعيد احياء المشاعر المعادية للاستعمار فى آسيا كلها. وكان جونسون يعتقد أن الفيتناميين الجنوبيين أنفسهم قادرون على خوض المعركة، بمساعدة التدريبات والمعدات الأمريكية.

بعد مرور فترة قصيرة على رحلة «جونسون» إلى «سايجون»، ذهب الأستاذ الجامعى الاقتصادى «أيوجين ستالى» - من جامعة «ستانفورد» - إلى سايجون لمساعدة «دييم» بإبداء المشورة له. وقام بتقديم عدة اقتراحات كان أهمها هو أن يتولى «دييم» تأسيس برنامج القرية الاستراتيجية الصغيرة، وكانت الفكرة هى أن تجتمع المزارعين - معاً - سيسهل عملية حمايتهم من «الفيت كوخج»، وفى نفس الوقت سيتمنع «الفيت كوخج» من تجنيدهم، أو فرض ضرائب عليهم، أو الاختفاء بينهم فى القرى. إلا أن الواقع العملى أثبت أن القرى الاستراتيجية تحولت إلى معسكرات عمل، فلقد قامت قوات «دييم» بإكراه الفلاحين على ترك أراضي عاشت فيها عائلاتهم منذ أجيال، وبذلك انقلب آلاف الفيتناميين ضد الحكومة، واستمرت الحرب تسير بطريقة سلبية. ورغم تمركز «الفيت كوخج» فى مناطق غير أهلة بالسكان إلا أنهم سيطروا على نصف البلاد تقريباً.

فى أكتوبر ١٩٦١، أرسل كنيدي بعثة أخرى إلى سايجون، برئاسة «روستو» و«ماكسويل تيلور». وكان «روستو» أستاذاً بجامعة «ميشيجان»، ومؤرخاً اقتصادياً مشهوراً على الصعيد الدولى. أما تيلور فكان بطل حرب وكان يشغل منصب مدير الأكاديمية العسكرية للولايات المتحدة، وكان من أكثر من تميزوا بانتقادهم لسياسة إيزنهاور، فى الاعتماد على الردع الشامل. ولقد كون الأستاذ الجامعى والجندى فريقاً فيما بينهما، من المفترض أنه كان يمثل أفضل وأبرع ما وجد فى الولايات المتحدة.

لقد قدمت بعثة «روستو- تيلور» تقريراً، مؤداه أن فيتنام الجنوبية لديها من الحيوية والنشاط ما يرر تدخل الولايات المتحدة بشكل جوهري، وقال «تيلور» إن الصعوبة الرئيسية كانت أن الفيتناميين الجنوبيين كانوا يشكون أن الأمريكيين سوف يساعدونهم فعلاً، ولذلك اقترح زيادة حجم التدخل الأمريكي. لقد أراد أن يقوم جيش فيتنام الجنوبية بالهجوم، على أن تتولى القوات الأمريكية مهمة الغطاء الجوى والاستكشاف. كما قام «تيلور» بحث كنيدي على إرسال وحدة مقاتلة، قوامها عشرة آلاف رجل إلى فيتنام الجنوبية. وكان «روستو» يرى أن «دييم» يصلح للمهمة، إذا ضغطت عليه الولايات المتحدة من أجل إجراء بعض الإصلاحات. واتفق «روستو» و«تيلور» على أن السبيل إلى النصر كان وقف التسلسل من الشمال، لأنه إذا استمر. فلن تكون هناك نهاية للحرب. لقد دافع «روستو» بقوة عن سياسة الانتقام من فيتنام الشمالية، عن طريق قصفها بالقنابل، لمضاهاة تأييد هانوى لـ«القيت كونج». ووافق كنيدي على الاستنتاجات الاساسية (رغم أنه رفض قصف فيتنام الشمالية)، وأمر بزيادة القوات والمعدات التي كانت تشحن إلى «دييم». عندما ترك إيزنهاور الرئاسة، كان يوجد بفيتنام الجنوبية عدة مئات من المستشارين الأمريكيين، وصل عددهم إلى ١٣٦٤ فى فترة بعثة «روستو- تيلور» ثم ارتفع عددهم إلى ١٠,٠٠٠ فى نهاية سنة ١٩٦٢، وإلى ١٥,٠٠٠ فى نوفمبر ١٩٦٣. أما المعدات - خاصة طائرات الهليكوبتر - فكان معدل وصولها أسرع من ذلك.

كان التزام أمريكا أمام «دييم» من القوة والصلابة؛ بحيث إن سايجون - كما جاء فى تقرير «دافيد هالبرستام» بالنيويورك تايمز - «زادت اقتناعاً، عن أى وقت مضى، بأنها وضعت حليفها أمريكا فى مركز حرج، وأنها يمكنها أن تفعل أى شئ تريده، وأن استمرار الدعم مضمون نظراً للخطر الشيوعى، وأنه لا يمكن للولايات المتحدة - بعد أن تعهدت بالتزامها - أن تعترف فجأة بأنها ارتكبت خطأ شنيعاً». لقد ركز تقرير «روستو- تيلور» تماماً على الرد العسكرى، فركز كنيدي جهوده على إرسال معدات عسكرية ثقيلة إلى سايجون. وحاول السفير الأمريكى أن يمارس بعض الضغوط على

«دييم»؛ لكي يجرى بعض الإصلاحات السياسية والاقتصادية، ولكن الأخير تجاهله. عندما كانت قوات «الفيت كونج» تنجح في تحرير قرية ما، كانوا يخبرون الفلاحين بأن الأرض أصبحت ملكاً لهم، وعندما كان جيش فيتنام الجنوبية يستولى على قرية كان يأتي معه بملاك الأرض، الذين كانوا يقومون بجمع الإيجارات المتأخرة، وغالباً لمدة خمس سنوات مضت.

ومع ذلك، كان يبدو أن الحرب على وشك الانتهاء. فبعد أن قام «ماكنمارا» بزيارة فيتنام في يونيو ١٩٦٢، أدلى بتقرير جاء فيه أن: «كل ما لدينا من مقاييس كمية، تشير إلى إننا نكسب هذه الحرب». وفي مارس ١٩٦٣، أعلن «راسك» إن الصراع ضد «الفيت، كونج» قد «أخذ مساراً مهماً»، وأنه أوشك على الانتهاء. وبعد مرور شهر، قال أن هناك «انجهاها مطرداً في فيتنام الجنوبية، نحو نظام دستوري يعتمد على الموافقة الشعبية»، كما أدلى القادة الأمريكيون الموجودون بالموقع ببيانات مماثلة. وفي مايو ١٩٦٣، ظهرت انتفاضات بوذية ضد «دييم» بسبب الاضطهاد الديني، أدت إلى تقليل تفاعل المسؤولين. ولكن لم يترتب على تحرك البوذيين ضد «دييم» سوى بعض الحرج، فلم يترتب عليه إعادة تقييم السياسة الأمريكية. واستمر كنيدي في زيادة حجم قوات الطوارئ العسكرية الأمريكية، ثم أعلن في مؤتمر صحفي أن «هدفنا هو خلق حكومة مستقرة هناك، تشترك في صراع للمحافظة على استقلالها القومي. نحن نؤمن بشدة بذلك.. في رأي أن انسحابنا الآن سوف يؤدي إلى انهيار، ليس فقط فيتنام الجنوبية، بل جنوب شرق آسيا. ولذلك نحن باقون هناك».

كان البيان الذي أدلى به كنيدي عبارة عن تلخيص موجز لاستمرارية السياسة، كأنما كانت فيتنام هي اليونان، وكوريا الجنوبية تتكرر مرة أخرى. فسرعان ما اشتركت «وكالة المخابرات المركزية» في مؤتمرات في سايجون للإطاحة بـ«دييم»، وإيجاد حكومة كفؤة، ومستقيمة لتتولى السلطة - باختصار كما حدث في كوبا، للعثور على بديل من بين الأحرار. كان «دييم» أرستقراطياً كاثوليكياً، لم ينجح في

اكتساب كثير من المؤيدين من جيشه، كما لم تكن له صلات حقيقية مع أصحاب الديانات الأخرى من غير الكاثوليك الذين كانوا يمثلون غالبية الشعب. وكانت عمليات القمع التي قادها صارمة أكثر من اللازم، كما كان واضحاً أن برنامج القرية الاستراتيجية، والإصلاح الزراعي قد فشلا، وكان لا بد من اختفائه. وفي نوفمبر ١٩٦٣، قام جيش فيتنام الجنوبية بالإطاحة بـ «دييم» ثم قتله هو وأخيه، وقد تم ذلك بموافقة وعلم وكالة المخابرات المركزية وإن لم يكن وفقاً لتعليماتها. ثم تولت السلطة حكومة عسكرية، كان بإمكانها أن تكون أكثر كفاءة في خوض الحرب، ولكن فيما عدا ذلك، لم يكن لديها برنامج عمل ولا سياسة واضحة.

بعد الإطاحة بـ «دييم» اتصلت جبهة التحرير القومية بقيادات الجيش في سايجون، وعرضت إجراء مفاوضات «للتوصل إلى وقف إطلاق النار، وحل المشاكل المهمة التي تعاني منها الأمة... بقصد الاتفاق على إجراء انتخابات عامة حرة، وتكوين حكومة وطنية ائتلافية، تتكون من ممثلين لكل القوات والأحزاب، والاتجاهات، والطبقات الموجودة في فيتنام الجنوبية». وكانت هناك عناصر مهمة بين ضباط جيش فيتنام الجنوبية، ممن كانوا على استعداد لدراسة فكرة إقامة حكومة ائتلافية ومحايده في فيتنام الجنوبية، ولكن الأمريكيين في سايجون وفي واشنطن رفضوا الفكرة من أساسها. وبعد مرور ثلاثة أسابيع على وفاة «دييم»، تم اغتيال كنيدي، وأصبح «ليندون جونسون» رئيساً.

في فيتنام - وكل مكان آخر - استمر «جونسون» في تنفيذ سياسة كنيدي. ففي رسالة بعث بها جونسون إلى فيتنام الجنوبية بمناسبة بداية العام الجديد ١٩٦٤، قام بتدعيم وجهة نظر المتطرفين في جيش فيتنام الجنوبية، عندما أعلن أن «حياد فيتنام الجنوبية سيكون مجرد اسم آخر لسيطرة الشيوعيين، وأن الولايات المتحدة سوف تستمر في إمدادكم وشعبكم بأكبر قدر من الدعم في هذا الصراع المرير. وسوف نحفظ في فيتنام بمسؤولين أمريكيين، وأدوات أمريكية، وفقاً لما تقتضيه الحاجة

لمساعدتكم على تحقيق النصر. في يوليو ١٩٦٤، انضمت موسكو وهانوى وباريس - معاً - في إصدار نداء إلى عقد مؤتمر دولي في جنيف، للتباحث حول اندلاع القتال في لاوس والحرب في فيتنام. ثم قامت الصين وجبهة التحرير القومي (بفيتنام) وكمبوديا بمساندة الدعوة إلى المؤتمر، وكذلك السكرتير العام للأمم المتحدة، «يونانت» (من بورما). فأجاب «جونسون» قائلاً: «إننا لا نثق في المؤتمرات التي تعقد من أجل إقرار الإرهاب»، ثم أعلن - في اليوم التالي - عن زيادة عدد المستشارين العسكريين الأمريكيين في فيتنام الجنوبية من ١٦,٠٠٠ إلى ٢١,٠٠٠ بواقع ٣٠٠٪.

لقد ظلت الحكومة الأمريكية مؤمنة بأنه يمكنها الانتصار في الحرب، عن طريق استخدام قدر محدود من القوة، من خلال الاعتماد أساساً على جيش فيتنام الجنوبية. وطوال صيف ١٩٦٤، استمر المسؤولون الأمريكيون في إصدار بيانات متفائلة؛ لقد ظل الإيمان راسخاً ببرنامج عمل كينيدي - ماكنمارا، الذي تضمن: الرد المرن، والقوات المضادة للتمرد، والنظريات الجديدة الخاصة بالحرب المحدودة. وبعد مرور سنوات عديدة، عندما أصيب الجميع بالتعاسة من جراء الحرب، لجأت القوات العسكرية الأمريكية ومؤيديها إلى الدفع بأن الفشل في فيتنام الجنوبية، جاء نتيجة القصور في استخدام القوة. لقد ادعت بعض القيادات العسكرية أنه كان بإمكان الولايات المتحدة أن تنتصر في الحرب إذا قامت بإرسال عدد أكبر من القوات في وقت مبكر. إن قدرة حكومة فيتنام الشمالية على مواجهة التصعيد الأمريكي خطوة بخطوة، جعلت ذلك المنطق، منطقاً انهزامياً. وعلى أية حال فإن ذلك الإدعاء أظهر أن النقاد أصيبوا بنفس الرؤية الضيقة، التي دفعت الولايات المتحدة إلى المشاكل في أول الأمر، وهي أن الصراع في فيتنام الجنوبية كان عسكرياً.

إن جوهر المسألة هو أنه في كل خطوة عبر الطريق، كان البيت الأبيض، والقوات العسكرية الأمريكية، وأجهزة المخابرات، ووزارة الخارجية على ثقة من أن الجهود

المبدولة كانت كافية، وإن إرسال عشرة الاف فرقة أخرى، أو مائة ألف، أو خمسمائة طائرة هليكوبتر أخرى، أو قصف ٣ أهداف أخرى بالقنابل، سوف تفي بالغرض. إن القيود التي كبلت العمليات الأمريكية في فيتنام كانت قيوداً مفروضة ذاتياً، بالإضافة إلى عدة عوامل لعبت دوراً في الحد من استخدام القوة، مثل عدم رغبة الشعب في دفع ثمن باهظ للحرب أو التخوف من تدخل الصينيين. ولكن أهم الأسباب على الإطلاق، وراء ذلك التدرج في مواجهة الموقف، هو أن إدارة كنيدي وإدارة جونسون كانتا على ثقة شديدة من أن المجهود المبذول كان كافياً لمواجهة الموقف. لقد أدت كل الاعتقادات القديمة - مثل فكرة أن الشيوعية لا يمكن أن تحصل على تأييد حقيقي، أو فكرة أن الآسيويين لا يمكنهم مواجهة الأساليب الفنية الحربية التي برع فيها الغرب - إلى الثبات على مبدأ الاستخفاف بالعدو.

كان «باري جولدوتر»، الذي رشحه الحزب الجمهوري للرئاسة في ١٩٦٤، أحد السياسيين القلائل، الذين خالفوا القاعدة؛ إذ كان يرى ضرورة بذل جهود إضافية، بل وبسرعة. لقد قال «جولدوتر» إنه كان على استعداد لمواجهة هيئة الأركان المشتركة ومطالبتهم بالفوز، باستخدام كل الوسائل الضرورية، بما في ذلك الأسلحة النووية، كما أنه أراد أيضاً أن تمتد الحرب إلى فيتنام الشمالية على أن تبدأ بغارات القصف الجوي.

وقبل «جونسون» التحدى في مرج. ففي الحملة الانتخابية لسنة ١٩٦٤، نشر خطة عمل، تتعهد بإجراء إصلاحات اجتماعية جوهرية في الداخل، مع إقرار السلام في الخارج وقدم نفسه في صورة الرجل الحكيوم الذي يمكن الاعتماد عليه لإحراز النصر في فيتنام، وفي نفس الوقت عدم انتشار الحرب. لقد رفض بازدياء شديد اقتراحات «جولدوتر» الميالة للقتال، قائلاً إن قصف فيتنام الشمالية سيؤدي إلى اتساع جبهة الحرب، وإلى اشتراك قوات أمريكية في المعركة، وأصر بصفة خاصة على النقطة الأخيرة: «لن نرسل الشباب الأمريكي تسعة أو عشرة آلاف ميل بعيداً عن الوطن؛ لكي يؤدي مهمة يجب على الشباب الآسيوي أن يؤديها لنفسه».

وينفس النمط الذى أصبح مألوفاً - فى ذلك الحين - فى الحملات الانتخابية للرئاسة الأمريكية خلال الحرب الباردة، قام «جولدوتتر» باتهام «جونسون» بأن موقفه من الشيوعيين لم يكن صارماً بالقدر الكافى، فكان على «جونسون» أن يثبت أن بإمكانه أن يكون حازماً وحليماً فى نفس الوقت، وصارماً وحكيماً فى نفس الوقت أيضاً. ولذلك انتهاز الفرصة التى حانت له فى ٢ و ٣ أغسطس ١٩٦٤، عندما تسلم تقارير تفيد بأن زوارق طوربيد تابعة لفيتنام الشمالية، قامت بمهاجمة مدمرات أمريكية فى خليج «تونكين». وفى ذلك الوقت تشكك البعض، فيما إذا كانت تلك الاعتداءات قد وقعت بالفعل، رغم أن نيويورك تايمز «وغيرها من الصحف» اقترحت أن البحرية الأمريكية هى التى حرضت على تلك الاعتداءات، عندما قامت بمرافقة فرق فدائية من فيتنام الجنوبية فى رحلاتها للإغارة على فيتنام الشمالية. وفيما بعد فى ١٩٦٨، أثناء جلسات الاستماع إلى «السيناتور فولبرايت» بمجلس الشيوخ، اقتنع الملايين بأن عملية خليج «تونكين» كانت خدعة. وعلى أية حال لقد اتهم «جونسون» - دون فحص أو تمحيص - فيتنام الشمالية بارتكاب «فعل عدوانى فى منطقة مفتوحة فى أعالي البحار».

كانت نتيجة ذلك، صدور قرار خليج «تونكين». ومثلما حدث مع إيزنهاور فى مشكلة الشرق الأوسط، طلب «جونسون» موافقة مفتوحة (شيك على بياض) تسمح له بتوسيع نطاق الحرب وفقاً لما يراه مناسباً، دون الرجوع إلى الكونجرس؛ وحصل على تلك الموافقة عندما طلب الرئيس من الكونجرس التصريح له باستخدام «كل الوسائل الضرورية»؛ لكى «يصد أى هجوم مسلح على القوات الأمريكية». وبالإضافة إلى ذلك منح الكونجرس للرئيس سلطة «منع وقوع أية اعتداءات أخرى»، وكذلك اتخاذ «كل الإجراءات الضرورية» لحماية أية دولة من دول حلف «السيكو»، قد تطلب مساعدتها «فى الدفاع عن حريتها». وعند الاقتراع على القرار فى مجلس

النواب - يوم ٧ أغسطس ١٩٦٤ - تمت الموافقة عليه بالإجماع (٤١٦ صوتاً ضد لاشئ). وفي مجلس الشيوخ، تولى «فولبرايت» إقناعهم بالموافقة على القرار؛ إذ أصر على أنه يتعين على الكونغرس أن يثق في الرئيس، ورفض تعديلاً للقرار، كان سيؤدي بالتحديد إلى منع الرئيس من استخدام سلطاته لتوسيع نطاق الحرب. ولم يكن قد تبقى على الانتخابات أكثر من ثلاثة شهور، لذا سعى «فولبرايت» إلى عدم إحراج جونسون، ثم جاء اقتراع مجلس الشيوخ في صالح القرار بـ ٨٨ صوتاً ضد صوتين («واين مورس» و«إرنست جرونينج»).

في نفس الوقت، أرسلت هانوي مندوبين لجس النبض بالنسبة لاحتمالات السلام. لقد عرض «هوشي مينه» سراً رغبته في التفاوض، ربما بدافع من خوفه من قرار خليج «تونكين»، أو ربما شجعه على ذلك، الهجوم الذي شنه جونسون على «جولدوتر»، متهماً إياه بالتهور والطيش. لم يكن جونسون أو مستشاريه أو قادة جيش فيتنام الجنوبية في سايجون - لديهم استعداد - ولو ضعيف - لقبول حل وسط، بديلاً للحرب؛ لأن ذلك كان سيعنى تكوين حكومة ائتلافية في فيتنام الجنوبية، ذات علاقات وثيقة بهانوي. كما لم يكن هناك شك تقريباً في أن الانتخابات ستؤدي إلى استبعاد قيادات جيش فيتنام الجنوبية كلية. وكان سيلى ذلك اتحاد سايجون الجديدة مع الشمال، وإصدار أمر بانسحاب القوات الأمريكية من فيتنام. وكان التفكير في مثل تلك التوقعات يصيب «جونسون» بالأم شديدة، خاصة وأنه لم يكن - بكل تأكيد - يرغب في إتاحة الفرصة أمام «جولدوتر» لكي يتهمه باسترضاء، أو، ضياع فيتنام. ولذلك رفض «جونسون» أن يتفاوض، واستمرت الحرب، وصوت الناخبون الأمريكيون لصالح «جونسون» الذي اكتسح «جولدوتر».

وظل الطريق إلى النصر مختلفياً. وحقيقة الأمر هي أنه عندما تزايد اتجاه مسار الحرب ضد سايجون، أصبح السؤال الحقيقي هو: هل تستطيع حكومة فيتنام الجنوبية أن تستمر في المقاومة؟ وليس هل ستنتصر أم لا. إن المستشارين العسكريين

الأمريكيين قاموا - قبل ١٩٦٠ - بتدريب جيش فيتنام الجنوبية على فنون الحرب التقليدية، على أساس أنه إذا قررت هانوى أن تتحرك ضد سايجون، فلا بد وأنها ستشن هجوماً على نمط الهجوم على كوريا الشمالية. وكثيراً ما أشير إلى ذلك العامل - فيما بعد - على أنه عنصر أساسى فى المشاكل التى واجهت جيش فيتنام الجنوبية. ولكن كان ذلك تمويهاً على المصدر الحقيقى للمشاكل، إذ لم يكن الضباط على اتصال حقيقى بالقوات، التى كان نصفها من الكاثوليك، وعديد منها من فيتنام الشمالية، كما نفشى الفساد، ووصل عدد الفارين من الجيش إلى أعلى معدل له فى العالم. والحقيقة هى أن جيش فيتنام الجنوبية كان سيتبدد فى مواجهة هجوم تقليدى، أكثر من بعثته فى مواجهة حرب العصابات. وببساطة لم تعد هناك رغبة فى القتال؛ لأنه لم يعد هناك حافز على القتال.

أصبحت مشكلة «جونسون» شديدة الخطورة، بعد فشل جيش فيتنام الجنوبي؛ إذ أصبح عليه أن يختار بين التفاوض، وبين اشتراك قوات مقاتلة أمريكية لإنقاذ الموقف. وإذا استمر على سياسة كنىدى، وهى توفير كل أشكال الدعم المادى، بالإضافة إلى مستشارى البيريهات الخضراء، فإن حكومة سايجون سوف تنهار، وسوف يستولى «الفيت كونج» على كل فيتنام الجنوبية.

وهكذا فإنه بعد عملية خليج «تونكين» والانتخابات، أصبح محور المناقشات التى كانت تدور فى واشنطن هو: هل يتم تصعيد الدور الأمريكى فى الحرب، أم هل تتفاوض؟ كان كلا الخيارين مفتوحاً، لقد عبرت هانوى - بعدة طرق - عن استعدادها للتفاوض، ولكن لم يهتم بذلك غير عدد قليل من المسؤولين الأمريكيين. أما «جونسون» و«راسك» ومساعدو كنىدى الذين استمروا فى إدارة «جونسون»، فقد ظلوا على موقفهم من رفض المفاوضات. وعلى حد تعبير «دافيد كراسلو» و«ستيوارت لورى»: «فى ١٩٦٤ كانت الرؤية السائدة بين المسؤولين فى واشنطن هى أن الولايات المتحدة لا تستطيع إعتبار فكرة المباحثات أو المفاوضات، إلا بعد

استخدام مزيد من الضغوط العسكرية على العدو، وفيما بعد، وصف مشول سابق من البيت الأبيض التيار الذى ساد تلك الفترة، قائلاً: «إنه مجرد كلمة (مفاوضات) صارت محرمة فى الإدارة». أما «روستو» و «تايلور» وغيرهم، فقد كان رأيهم أنه لا بد من إصلاح التوازن العسكرى قبل التفكير فى المفاوضات، والذى كان معناه الحقيقى أنهم كانوا يسعون إلى الانتصار ويتوقعونه. لقد وصف «روستو» السياسة قائلاً: «يجب علينا أن نضع حداً لحروب التحرير؛ فلتكن هنا فى هذه البقعة على النمط الصينى، وإذا لم نسحقها هنا سوف يتعين علينا مواجهتها مرة ثانية فى تايلاند، أو فنزويلا أو غيرها. إن فيتنام أرض خالية صالحة لاختبار سياستنا فى العالم».

بعد أن رفض «جونسون» المفاوضات، أصبحت مشكلته العويصة هى كيف ينتصر فى الحرب دون إرسال قوات برية أمريكية إلى المعركة، ولقد أجابت القوات الجوية على ذلك السؤال. رغم فشل القوات الجوية فى قصف خط تموين العدو فى كوريا الشمالية، إلا أن ذلك لم يثبط همتهم؛ إذ أبلغ مؤيدو استراتيجية القوة الجوية الرئيس أنه يمكنهم إيقاف عدوان هانوى خلال شهر. وعندئذ وجه أحد المساعدين من المدنيين سؤالاً إلى الجنرالات: وماذا يحدث إذا لم تنسحب هانوى فى شهر؟ فكانت الإجابة أن أسبوعين آخرين سيؤديان المهمة. وتحدد أكثر، كان «ماكنمارا» وزير الدفاع من مؤيدى نقل الحرب الجوية إلى فيتنام الشمالية، لثقتة بأنها سترفع من معنويات القوات فى فيتنام الجنوبية، وتؤدى إلى انخفاض تدفق وزيادة تكلفة تسليح الرجال والمعدات من شمال فيتنام إلى جنوبها، بالإضافة إلى آثارها السلبية على الحالة المعنوية فى فيتنام الشمالية. وكانت المحصلة النهائية هى: «التأثير على عزيمتهم بالدرجة التى تدفع هانوى إلى عرض تسوية مرضية». وكانت النقطة الثالثة توصف فى بعض الأحيان - بأنها «حرب التراجع»، وكان المقصود من ذلك أن «هوشى مينه» سيقمر - إن عاجلاً أو آجلاً - أن المكاسب المتوقعة لا تستحق الثمن الذى يدفعه، وعندما سوف ينسحب. كما كان للقصف بالقنابل أفضلية أخرى، وهى تلك النكهة التى تميزت بها السياسة الأمريكية السائدة: سوف تنتصر الولايات المتحدة

فى الحرب عن طريق إنفاق الأموال والمواد، المتوافرة لديها بغزارة، مع تجنب الخسائر فى الأرواح.

وفى نهاية ١٩٦٤، قرر «جونسون» أن يبدأ حملة قصف بالقنابل على فيتنام الشمالية، فأعدت القوات الجوية والبحرية الاستعدادات الضرورية. إلا أن قصف دولة لم تكن فى حالة حرب مع الولايات المتحدة، ولم تقترف أية أعمال عدوانية ضد الولايات المتحدة، ولم تكن النية موجودة لدى الولايات المتحدة لإعلان الحرب عليها، كان يمثل خطوة خطيرة. لذلك قرر جونسون أن يبذل محاولة أخيرة، ليتأكد من أن الحملة الجوية كانت ضرورية فعلاً لإنقاذ الموقف فى فيتنام الجنوبية؛ فأرسل فى أواخر يناير وفداً برئاسة «ماك جورج باندى» - مستشاره الخاص لشئون الأمن القومى، والذى كان محل ثقة كيندى - إلى سايجون لاستكشاف حقيقة الأوضاع هناك.

فى ٧ فبراير ١٩٦٥، اخترقت قوات «الفيت كونج» خطوط الدفاع المحيطة بالقاعدة الجوية الأمريكية فى «بليكو» بفيتنام الجنوبية، ودكت ممر الطائرات وبعض الثكنات العسكرية الأمريكية بمدافع الهاون؛ مما تسبب فى قتل ثمانية جنود أمريكيين، و تدمير ست طائرات هليكوبتر وطائرة نقل. انتقل «باندى» إلى الموقع لمعاينة الخسائر، ووفقاً لما نقله أحد المسؤولين بالبيت الأبيض فيما بعد: «رجل من البرج العاجى وجد نفسه فجأة فى مواجهة الذعر المروع لحقيقة الموقف؛ فطاش صواب ماك وحث على البدء فوراً فى هجوم انتقامى». وانضم إلى «باندى» فى التوصية بالانتقام الفورى «ماكسويل تيلور» السفير الأمريكى فى فيتنام الجنوبية، والجنرال «ويليم مورلاند» القائد العسكرى الأمريكى. وفى خلال اثنتى عشرة ساعة، بدأت ما أطلق عليه غارة انتقامية، وبها بدأت أول خطوة جوهريه فى تصعيد الموقف الأمريكى.

أعد «باندي» في طريق عودته إلى واشنطن، مذكرة حث فيها على وضع برنامج مطرد لقصف الشمال بالقنابل، ودافع عن ذلك بقوله إنه في خلال ثلاثة شهور من بدء القصف، سوف تستسلم هانوي وتطلب السلم، وكان في تقديره أن القصف بالقنابل هو الطريق الوحيد لتجنب القرار الكريه بإرسال قوات مقاتلة أمريكية. وفي واشنطن، استمرت المخططات لوضع برنامج لقصف الشمال بطريقة منتظمة.

وفي ٢ مارس ١٩٦٥، أصابت قاذفات القنابل الأمريكية مستودع ذخيرة في فيتنام الشمالية، وميناء يبعد عن المنطقة المنزوعة السلاح بخمسة وخمسين ميلاً شمالاً، وكانت تلك هي أولى الغارات التي شنت دون أي ذريعة استفزاز محدد من قبل فيتنام الشمالية، وسرعان ما تبعها غارات أخرى. كان جونسون يختار الأهداف بنفسه في اجتماعات الغذاء، التي كانت تعقد كل يوم ثلاثاء مع «ماكنمارا» و«راسك» و«روستو»، وبحضور ممثلين عن هيئة الأركان المشتركة، و«وكالة المخابرات الأمريكية» أحياناً. وقاموا بوضع قيود على أساس الاعتماد على قائمة من أربعة عناصر: (١) الفائدة العسكرية الناجمة عن ضرب الهدف المقترح، و (٢) المخاطر المعرضة لها الطائرات الأمريكية، و (٣) خطورة توسيع نطاق الحرب عن طريق إجبار دول أخرى على دخول المعركة، و (٤) خطورة التسبب في إصابات مدنية كثيفة. كانت النقطة الثالثة أهمها على الإطلاق، لأن إقصاء روسيا عن الصراع الدائر كان ضرورياً. وحيث إن السفن السوفيتية كانت عادة ترسو في ميناء «هايفونج»، فلم يقصف ذلك الميناء على الإطلاق.

وفي أثناء قصف الشمال بالقنابل، نشط الطيارون الأمريكيون - بطريقة عنيفة - في فيتنام الجنوبية. ووفقاً لما قاله «برنارد فول»، الحقيقة هي أن «السبب وراء تغير طبيعة حرب فيتنام لم يكن قرار قصف فيتنام الشمالية بالقنابل، ولم يكن قرار استخدام قوات برية أمريكية في فيتنام الجنوبية، ولكن كان السبب هو قرار شن حرب

جوية بلا حدود، داخل البلاد، تسببت في تدمير المكان؛ فتحول إلى قطع صغيرة. إن مجرد الحجم المحض للمجهودات الأمريكية يجعل ذهن الإنسان يجفل رعباً. وفي بادئ الأمر، أعلنت عناوين الصحف أن الولايات المتحدة أسقطت على فيتنام الصغيرة قنابل، فافت ما أسقطته في كل معارك المحيط الهادى فى الحرب العالمية الثانية. وبحلول ١٩٦٧، كانت القنابل الملقاة قد فاقت كل ما ألقى فى المعارك الأوروبية، ثم فاقت كل ما ألقى فى الحرب العالمية الثانية. وفى النهاية - بحلول عام ١٩٧٠ - كانت القنابل التى ألقىت على فيتنام قد فاقت كل ما ألقى على كل الأهداف فى تاريخ البشرية كله. لقد انهمرت قنابل النابالم على القرى، بينما أتت الأعشاب الضارة على الشجر فى الحقول، ولم يحدث أبداً من قبل أن شنت دولة حرباً تعتمد اعتماداً كلياً على إنتاجها الصناعى وتفوقها المادى.

ومع ذلك، فلم يأت كل هذا بنتيجة؛ إذ لم تنسحب هانوى ولم تنهار معنوياتها، كما استمر تسلل الرجال والعتاد (بل تزايد)، وظل «الفيت كونج» يحاربون، وازداد الرضع السياسى فى سايجون سوءاً، لقد رفض جونسون التفاوض، وأعطى للقوات الجوية فرصتها، ولكن القوات الجوية فشلت. وكان لابد من اتخاذ قرارات جديدة.

بالرغم من الاعتداء بالقنابل، ظل احتمال التفاوض وارداً، فتعرض جونسون لضغوط رهيبية من حلفاء شمال الأطلنطى والدول المحايدة، لكى يجرى مباحثات مع هانوى. ووضع جونسون رده، فى خطاب ألقاه فى ٧ أبريل ١٩٦٥، بجامعة «جون هيريكنز»، حيث وعد بوضع برنامج ضخم للإصلاح الاقتصادى فى جنوب شرق آسيا، بمجرد إنهاء الصراع، أو بعبارة أخرى حلاً شبيهاً بخطة «مارشال» لتلك المنطقة، ثم ادعى أنه سيذهب إلى أى مكان ليناقدش إقرار السلام مع أى شخص. ولكن السيف الذى لَوَّح به الرئيس كان أكثر أهمية من غصن الزيتون الذى رفر فى يده. لقد صرَّح بأن الدرس الأساسى للقرن العشرين هو أنه «لا يمكن أبداً إشباع

شهية العدوان»، وطالما ظل في منصبه كرئيس للولايات المتحدة، فلن تكون هناك محاولات لاسترضاء فيتنام الجنوبية «لن ننهزم.. لن نكل.. لن ننسحب، لاعلانية ولا تحت ستار اتفاقية ليس لها معنى». وفي اليوم التالي، شنت قاذفات القنابل الأمريكية سلسلة عنيفة من الغارات الجوية على فيتنام الشمالية، كما بدأت قوات أمريكية إضافية، وصل عددها الى خمسة عشر ألف جندي، في الاتجاه صوب فيتنام الجنوبية.

استمرت القوات الجوية في ضرب فيتنام الشمالية - دون إحراز نجاح - وبعد مرور شهرين أعلن جونسون - في ٨ يونيو ١٩٦٥ - أنه قد صرح للقوات الأمريكية، التي كانت مهمتها مقصورة على الدوريات فقط، باستقصاء العدو والاشتراك في القتال. وبعد مرور ثلاثة أيام، سقطت آخر حكومة مدنية في سايجون، وتولى رئاسة الحكومة «نوجيون كاو كى»، الذى كان فى منصب نائب مشير القوات الجوية، والذى اشترك مع الفرنسيين فى قتال «الفيت مينه». وسرعان ما أعلن «كى» أن «تأييد سياسة الحياد» ستكون عقوبته الاعدام من الآن فصاعداً. ومع ذلك، وبالرغم من تشدد واشنطن وسايجون، فلم يكن مسار الحرب فى صالحه، لقد نجحت قوات «الفيت كونج» فى تدمير خطوط السكة الحديدية فى فيتنام الجنوبية، وازدادت أعمال الإرهاب فى المدن، واستمر وقوع مزيد من الأراضى فى أيدي الشيوعيين. وفى نفس الوقت، حاولت هانوى - التى كانت منكبة على زيادة قوتها - بدء المباحثات مرة أخرى، وذلك بأن حددت بوضوح أن الموافقة من حيث المبدأ على الانسحاب الأمريكى، وليس الانسحاب فى حد ذاته، كفيلة بالبدء فى المفاوضات.

فى خطاب مهم، ألقاه جونسون فى ٢٨ يوليو، كرر نفس الادعاء المعتاد المتعذر تنفيذيه «لم تكن هناك أية استجابة من الجانب الآخر» للبحث الأمريكى عن السلام. ولذلك كان مكرباً على إرسال ٥٠,٠٠٠ جندي إلى فيتنام الجنوبية، وبذا وصل

إجمالي عدد القوات المشتركة في الحرب إلى ١٢٥,٠٠٠ جندي. وكان جلياً أن القوات الأمريكية ستشارك فعلياً في معارك برية، لقد قررت الولايات المتحدة أن تفوز في فيتنام عن طريق سحق العدو. وكان جونسون قد أعلن بالفعل في ١٠ يولية، أنه لن تكون هناك حدود لعدد القوات التي سترسل إلى الجنرال «وست مورلاندا».

منذ عهد «ماك آرثر» حذر كل ضابط عسكري أمريكي مشغول، أتاحت له فرصة التعليق على ذلك الموضوع، من اشتراك الولايات المتحدة في حرب برية في آسيا، ومع ذلك كانت الأمة في ذلك الوقت مشتركة فيها تماماً. ومرة تلو أخرى أعلن جونسون - خلال حملته الانتخابية في ١٩٦٤ - إنه لا يعترم لإرسال الشباب الأمريكي للموت في فيتنام الجنوبية، لكي يقوموا بما يجب على شباب آسيا أن يضطلع به بنفسه، ومع ذلك كان الشباب الأمريكي يلاقى حتفه هناك آنذاك. وكررت وزارة الخارجية مراراً وتكراراً أن الولايات المتحدة يجب ألا تسمح على الإطلاق للشيوعيين بأن يدعوا أنها كانت تفقد حرب الرجل الأبيض ضد الآسيويين، ومع ذلك كان ذلك ما يحدث بالضبط في تلك الآونة. إن كنيدي ومساعديه كثيراً ما ردوا أن قوات التمرد المضاد كانت - أساساً - ذات مهمة سياسية، وأنه لا يمكن الفوز في حرب العصابات، دون رد فعل سياسي ملائم، ومع ذلك فإن ٩٠٪ أو أكثر من المعدات التي كانت ترسلها الولايات المتحدة إلى فيتنام الجنوبية كانت معدات عسكرية، كما أن قوات الولايات المتحدة كانت القوة الوحيدة التي حالت بين الدكتاتورية والانهيار التام.

لماذا لم يهتم الأمريكيون بالتحذيرات التي أصدرها بأنفسهم؟ لأنهم كانوا مزهوين ومغرورين ومفرطين في ثقتهم بأنفسهم، ومتأكدين أنهم يستطيعون تحقيق النصر بضمن محتمل، وصدّ في نفس الوقت تيار الشيوعية في آسيا. باختصار لقد توقعوا أن ينجزوا في فيتنام، ما نجح جونسون في تحقيقه في جمهورية الدومينيكان.

من سنة ١٩١٦ حتى سنة ١٩٤٠ كانت البحرية الأمريكية مسيطرة على جمهورية الدومينيكان، حيث كانت للمؤسسات الأمريكية استثمارات ضخمة في المزارع، التي كانت تصدر الفواكه والخضر الطازجة إلى الأسواق الأمريكية خلال الشتاء. ثم أنهى الرئيس إيزنهاور الوجود الأمريكي العلني في سنة ١٩٤٠، عندما فاز «رافائيل تروهيو» في انتخابات رئاسة غير نزهاء، وأسس ديكتاتورية فعالة وقاسية، حتى أن «روزفلت» نعت «تروهيو» بأنه وغد. وفي مايو سنة ١٩٦١ اغتيل «تروجيللو».

بعد رحيل «تروهيو» رأى كنيدي أن أمامه ثلاثة احتمالات، فقام بترتيبها «ترتيباً تنازلياً بادئاً بأفضلها» فكانت: «نظام حكم ديمقراطي لائق، أو استمرار نظام حكم «تروهيو»، أو نظام كاسترو. يجب أن يكون هدفنا الاحتمال الأول، ولكننا لن نتمكن من التخلي فعلياً عن الاحتمال الثاني، إلا عندما نتأكد أنه بإمكاننا تجنب الاحتمال الثالث». إن هذا التصور جسّد الطريقة التي كان كنيدي - والولايات المتحدة - تتعامل بها مع العالم الثالث، كان كنيدي يريد حكومة ديمقراطية، ولكن إذا كانت الحكومة التي قادت الثورة ذات انتماءات اشتراكية، أو كان هناك خطر من أن تصبح الدولة شيوعية، عندئذ سيقبل ديكتاتوراً، وليتعامل مع مشكلة الحريات فيما بعد. الشيء الذي يجب كل شيء، هو عقد العزم على إقصاء السوفييت، والمحافظة على النفوذ الاقتصادي والسياسي الأمريكي.

لم يضطر كنيدي إلى الاختيار بين نظام «كاسترو» ونظام «تروهيو»؛ إذ أن شعب الدومينيكان - بعد سلسلة من الحكومات المؤقتة الانتقالية - قام في ٢٠ ديسمبر ١٩٦٢ بانتخاب «جوان بوش» رئيساً له. وكان «بوش» يسارياً، وإن لم يكن شيوعياً، وكان كاتباً قضى سنوات في المنفى بسبب عداته «لتروهيو»، فبدا مثلاً للبديل الذي كان كنيدي يبحث عنه. ولكن «بوش» لم يتمتع بنفس قوة

العسكريين والمحافظين في الدومينيكان ولذا، أطاح به العسكريون في انقلاب، وقع بعد انتخابه بعشرة أشهر. استولى «دونالد ريد كابرال» على السلطة، ولكن رغم أنه كان عضواً في حكومة الأقلية، فإنه لم يستطع أن يحصل على تأييد كافٍ من العسكريين، ولم يكن له أى مؤيدين تقريباً بين الشعب. فى أوائل أبريل سنة ١٩٦٥، كانت الجمهورية على حافة الانفجار مرة أخرى، رغم أن الولايات المتحدة قد أرسلت خمسة ملايين دولار إلى «ريد كابرال».

فى ٢٤ أبريل، شنت مجموعة من صغار ضباط الجيش المواليين لـ«بوش» انقلاباً، أطاح بـ «ريد كابرال»، ولكنهم عجزوا عن فرض النظام والأمن فى البلاد، فانطلقت جماهير الشعب الغاضبة فى شوارع «سانتو دومينجو»، وقامت مجموعة من العسكريين - وصفتهم واشنطن بأنهم «الموالين» - بانقلاب للاستيلاء على السلطة، ثم قام المتمردون بتسليح آلاف المدنيين وبدأ القتال. وفى ظل هذه الأحداث حذر السفير الأمريكى «تابلى بينيت» من احتمال سيطرة الشيوعيين على السلطة - فجأة - نتيجة للحرب الأهلية.

وعلى الفور، قرر جونسون أن التمرد كان جزءاً من مؤامرة أكبر حجماً، مع احتمال أن يكون «كاسترو» هو العقل المدبر لها، وأن تحدى المصالح الأمريكية فى جمهورية الدومينيكان كان تحدياً للمصالح الأمريكية فى كل أنحاء أمريكا اللاتينية، ولذلك قرر أن يتدخل. وفى ٢٨ أبريل أرسل جونسون البحرية الأمريكية، على أن تطير بعدها فرقة الجيش الثانية والثمانون، وكان تفكيره ينصب مبدئياً على حماية أرواح المواطنين الأمريكيين فى «سانتو دومينجو». ولكن فى ٣٠ أبريل، أعلن سبباً مختلفاً تماماً: «إن الجماعات التى تدرت خارج جمهورية الدومينيكان تسعى للاستيلاء على السلطة». «وقامت السفارة الأمريكية فى «سانتو دومينجو» بإصدار قائمة، تتضمن ثمانية وخمسين من «الزعماء المعروفين، والبارزين من الشيوعيين، والموالين

لكاسترو» الموجودين في القوات المتمردة. وكان واضحاً - بل حتى بطريقة مشينة - أن تلك القائمة كانت مزورة؛ إذ كان مصدرها قائمة أعدها «تروهيو» نفسه منذ عدة سنوات سابقة. لقد حاز تقييم «بوش» للموقف على قبول جبهة عريضة: «كانت هذه ثورة ديمقراطية قامت بقمعها زعيمة الديمقراطية في العالم».

لقد تصرف جونسون بمفرده، ويرجع ذلك، جزئياً، إلى عامل السرعة وإلى رأيه في شركائه في «منظمة التحالف من أجل التقدم»، ولقد علق على ذلك؛ قائلاً «إن منظمة الدول الأمريكية - OAS - لا تستطيع أن تنظف حذاءً مما علق به، حتى وإن كانت التعليمات مكتوبة على كعب الحذاء». بعد أن تمكنت البحرية الأمريكية من إعادة النظام والأمن، ومن منع «بوش» من تولي السلطة، كان من الضروري مواجهة منظمة الدول الأمريكية، واستطاع جونسون أن يقنع دول أمريكا اللاتينية بأن تنضم إليه في جمهورية الدومينيكان. وفي ٢٨ مايو قامت «قوة منظمة الدول الأمريكية لحفظ السلام» بتعزيز القوات الأمريكية ثم تسلمت منها مقاليد الأمور. واستمر البحث عن جهة معتدلة في الحكومة، وفي آخر الأمر تكونت حكومة في سبتمبر، وفي يونيو ١٩٦٦ فاز «جوكين بالاجار» اليميني المعتدل على «بوش» في انتخابات الرئاسة.

لقد فاز جونسون. كان تدخلاً محدوداً من حيث الوقت وعدد القوات المشتركة والتكلفة، والخسائر في الأرواح. لقد نجحت البحرية وجنود المظلات الأمريكية في الحيلولة، دون ظهور «كاسترو» آخر أو «تروجيللو» آخر في جمهورية الدومينيكان، كما احتفظت المؤسسات الأمريكية بمزارعها، وأمكن تهدئة منظمة الولايات الأمريكية.

عندما كانت الأزمة في أوجها، قام النقاد من الليبراليين بإمطار جونسون بوابل من الأسئلة، وجاء في المقالة الافتتاحية للنيويورك تايمز: «يبدو أن الولايات المتحدة لم تكن مدركة تماماً أن شعب الدومينيكان - وليس مجرد حفنة من الشيوعيين - كان

يقاثل ويضحى بحياته دفاعاً عن العدالة الاجتماعية، والتمسك بالمبادئ الدستورية». وقد اعترض روبرت كينيدي؛ لأن جونسون توانى عن إخطار منظمة الدول الأمريكية قبل أن يتصرف، ولكن جونسون تجاهل النقاد، واستطاع نجاحه - فى نهاية الأمر - أن يرر تصرفه. ربما استنتج أنه يمكن أن يفعل نفس الشيء فى فيتنام، وأن النجاح هناك أيضاً سوف يصمت النقاد.

فى نفس الوقت، واجه «جونسون» مشاكل فى الشرق الأوسط، نشأت نتيجة حدة الحركات القومية فى المنطقة، واستحواذها على نصيب الأسد من احتياطي البترول العالمى. وفى الستينيات تمكنت الدول العربية - واحدة تلو الأخرى - من وضع يدها على بترولها الذى كان البريطانىون يمتلكونه قبل الحرب العالمية الثانية. أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية، قامت شركات البترول الأمريكية بإجبار البريطانيين على مشاركتهم فى الغنائم. ولكن الحكومات العربية التى تأسست عقب الحرب، ومعها إيران، بدأت تطالب بالمزيد، مقابل الثروة الطبيعية الثمينة المحدودة والوحيدة التى يمتلكونها. كان «مصدق» رئيس وزراء إيران، أول من حاول تأمين كل حقول البترول (١٩٥١)، وأطاحت به وكالة المخابرات المركزية فى ١٩٥٣. وفى ١٩٥٩، كونت بعض الدول المنتجة للبترول - فنزويلا وإيران والسعودية والكويت والعراق - معاً منظمة الدول المصدرة للبترول، «الأوبك»، كان الغرض منها هو وقف أى هبوط مفاجئ فى المستوى العالمى لأسعار البترول الخام. وكانت الولايات المتحدة ما زالت من الدول المصدرة للبترول. فى ١٩٥٩ كان هناك فائض من الإنتاج غمر الأسواق، لدرجة أن رفع أسعار البترول إلى المستويات التى كانت عليها قبل ١٩٥٩ استغرق عشر سنوات. وفى نفس الوقت كانت كل دولة منتجة للبترول، قد أمتت حقولها سواء بالاتفاق مع شركات البترول البريطانية والأمريكية، أو ببساطة عن طريق ممارسة سلطات السيادة.

وعلى حين أخذت الدول العربية الأخرى تزداد ثراءً، عجز عبد الناصر عن تحقيق أية معجزات فى مصر، وذلك بالرغم من تعهداته بالاشتراكية والوحدة العربية،

التي لم يحقق أياً منها فعلاً؛ حيث ظل الشعب المصري يتمرغ في أسوأ مظاهر الفقر في العالم كله تقريباً، بالرغم من المساعدات السوفيتية. لقد أخذت الجمهورية العربية المتحدة في التداخي بحلول ١٩٦٧، وكان عبد الناصر في أمس الحاجة إلى نصر كبير ومثير ليساعده على استعادة وضعه. وكانت أمامه الفرصة، فقد عكف السوفييت منذ حرب ١٩٥٦ على تزويد مصر وسوريا والعراق بالأسلحة المتقدمة، مع اتباع سياسة صارمة في معاداة إسرائيل. وكان عدد العرب يفوق الإسرائيليين، بدرجة كبيرة، كما أن تسليحهم أصبح أفضل. وبحلول ١٩٦٧ كان السوفييت يشجعون العرب على مهاجمة إسرائيل - رغم أنهم أكدوا بوضوح أنهم لن يساندوا العرب علانية - وبالتالي كان على العرب ألا يتوقعوا أية مساعدات إذا فشلت مغامرتهم العسكرية. ومع ذلك، في ظل وجود آلاف الفنيين الروسيين وعائلاتهم في مصر - حيث كانوا يعملون في السد العالي بأسوان، أو مع العسكريين المصريين - افترض عبد الناصر أن روسيا لا بد وأن تدعمه.

في مايو ١٩٦٧، طالب عبد الناصر - بتحريض من السوفييت والمتطرفين من العرب - بسحب قوة الطوارئ التابعة للأمم المتحدة، التي وقفت بين المصريين والإسرائيليين منذ ١٩٥٦. وأوضح «يوثانت» - السكرتير العام للأمم المتحدة - أنه لا يستطيع أن يبقى على قوات الأمم المتحدة، في مكان تعترض عليه الحكومة المضيفة، ومن ثم أمر فوراً بسحب قوة الطوارئ من سيناء. ويبدو أن ذلك أثار دهشة كل من عبد الناصر والسوفييت، وغيرت روسيا موقفها، وأخذت تحت عبد الناصر على التريث، لأنهم كانوا يخشون اندلاع حرب لا يمكنهم السيطرة عليها، وقد تؤدي إلى مواجهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. ولكن عبد الناصر لم يستطع أن يتراجع عند تلك النقطة الحاسمة، لقد سيطرت القوات المصرية على شرم الشيخ المطل على مضيق تيران، وبذا حالت دون مرور إسرائيل إلى خليج العقبة، وبالتالي إلى ميناء إيلات.

كانت الولايات المتحدة مستغرقة في حرب فيتنام في ذلك الوقت، كما زاد اعتمادها على بترول العرب، والأهم من ذلك كله، كانت متلهفة على الحيلولة دون اندلاع حرب أخرى - خاصة في الشرق الأوسط - مع احتمال حدوث تداعيات هائلة، كان من الأفضل عدم التفكير فيها. ولكن لم يكن في مقدورها أن تتخلى عن إسرائيل - بهذه البساطة - لعبد الناصر والسوفييت، وحاول الرئيس جونسون أن ينظم محاولات دولية للتغلب على الحصار المصري، ولكن دول أوروبا الغربية رفضت أن تتعاون معه، خشية فرض حظر على بترول العرب. وهنا أصبحت إسرائيل وثيقة أن الجهود الأمريكية كانت فاترة، وتعوزها الحماسة، فقررت أن تتولى زمام الأمور بنفسها، قبل أن تختنق ببطء.

في تلك الفترة الحاسمة، قدم الجنرال «ديجول» نصيحة حكيمة لـ «أبا إيبان» - وزير خارجية إسرائيل - فقال له: «لا تشن حرباً.. سوف ينظر إليك العالم - وأنا أيضاً - على أنك المعتدى. سوف تتسبب في أن يتوغل الاتحاد السوفيتي في أعماق الشرق الأوسط أكثر من الآن، مما سيكون له عواقب وخيمة على إسرائيل. وستخلق قومية فلسطينية، ولن يمكنك أن تتخلص منها إلى الأبد». وقد ثبت صدق نبوءة «ديجول» الأخيرة بصفة خاصة. وفي نفس الوقت كانت روسيا تطلب من مصر ألا تبدأ بالضربة الأولى، وهو نفس ما كانت تطلبه الولايات المتحدة من إسرائيل.

لكن في صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ بدأت القوات الجوية الإسرائيلية بالهجوم، لقد حلقت طائراتها فوق البحر الأبيض المتوسط بدلاً من فوق سيناء، بحيث تجنبت الرادار المصري، وبالتالي حققت مفاجأة تكتيكية من الدرجة الأولى. لقد دمرت معظم الطائرات المصرية وتركت مطاراتها غير صالحة للعمل، ثم استدارت وكررت نفس العملية ضد القوات الجوية الأردنية والسورية والعراقية. لقد كان استعراضاً باهراً لتفوق الطيران الإسرائيلي، حقق لهم السيطرة على الجو؛ فلجأ عبد الناصر إلى إغراق السفن لكي يسد قناة السويس. وفي صباح ذلك اليوم؛ قام «إليكسي كوسيجين»

رئيس الوزراء السوفيتي بالاتصال بالرئيس جونسون على الخط الساخن، وأبلغه أن الاتحاد السوفيتي لن يتدخل إلا إذا تدخلت الولايات المتحدة. في ذلك الوقت، كانت الدبابات وكتائب المشاة الإسرائيلية قد بدأت تقدمها بالفعل داخل صحراء سيناء واستولت على مرتفعات الجولان، واحتلت الضفة الغربية والقدس. ولذلك قام «جونسون» بإبلاغ «كوسيجين» أن الولايات المتحدة على استعداد لطلب وقف إطلاق النار، وهو ما طالب به مجلس الأمن في اليوم التالي، ٦ يونيو. وفي نفس الوقت، أمر «جونسون» الأسطول السادس الأمريكي، القابع في البحر المتوسط بأن يتخذ حالة الاستعداد القصوى، كما أرسل حاملتان للطائرات للالتجاء إلى مصر.

وهكذا منح «جونسون»، دون عمد، عذراً مثالياً لعبد الناصر ليبرر به الأداء المؤسف للقوات الجوية المصرية. رغم أن السوفييت كانوا قد وضعوا الأسطول الأمريكي تحت رقابة محكمة، وبالتالي علموا - بما لا يدعو للشك - أنه لم تنطلق منه أية طائرات مقاتلة يومي ٥ أو ٦ يونيو، إلا أن «عبد الناصر» ادعى زوراً أن طائرات أمريكية من الأسطول السادس، بالإضافة إلى طائرات بريطانية من قبرص قد اشتركت في مجموعة الهجمات الأولية. ولقد آمن بصدق هذا الإدعاء، عدد كبير من الدول العربية. ولذلك فإنه بحلول صباح ٧ يونيو، كانت مصر والجزائر والعراق والسودان وسورية واليمن قد قطعوا علاقاتهم الدبلوماسية بالولايات المتحدة وبريطانيا. ولكن عبد الناصر لم يستطع أن يجذب الدول العربية المعتدلة إلى صفه، ولذلك بقيت العلاقات بين الولايات المتحدة، والأردن، وليبيا، والمغرب، والكويت، وتونس، والسعودية. ثم أعلن وزراء البترول العرب فرض حظر على شحنات البترول إلى مساندى إسرائيل؛ خاصة بريطانيا والولايات المتحدة، ولكن ذلك كان ذا تأثير ضعيف.

كانت إسرائيل قد حققت نصراً مذهلاً؛ وعندما قبلت وقف إطلاق النار في ١٠ يونيو (وبذا أطلق على الصراع اسم حرب الأيام الستة) كانت قد استولت من مصر على كل شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة، وتوغلت داخل سورية بعمق ١٢ ميلاً، واستولت على مرتفعات الجولان؛ وكل القدس والضفة الغربية لنهر الأردن.

كانت نتائج حرب الأيام الستة كهيبة مقبضة بالنسبة لكل من روسيا والولايات المتحدة؛ فالأسلحة الفرنسية دمرت الأسلحة الروسية (طائرات الميراج الفرنسية كانت عماد القوات الجوية الإسرائيلية)، كما أن الحشد الضخم للدبابات الروسية في العالم العربي لم يسفر عن شيء، والواقع أن الدبابات التي لم تدمر أصبحت جزءاً من غنائم الحرب، التي استولت عليها إسرائيل. وكان العرب - بصفة عامة - في ثورة من الغضب، لأن روسيا لم تساعدهم بطريقة أكثر فعالية في وقت شدتهم، ان الولايات المتحدة حاولت أن تمنع الحرب وفشلت. والآن أغلقت قناة السويس، وفرض العرب حظراً على البترول، ورسخت أقدام الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط، أكثر من أى وقت مضى، لأن العرب أصبحوا معتمدين على روسيا، أكثر مما سبق (لإعادة بناء قواتهم المسلحة، رغم شدة كراهيتهم لذلك الوضع)، وقطع نصف الدول العربية علاقته الدبلوماسية مع الولايات المتحدة.

أسوأ ما في الأمر، أن إسرائيل احتلت الآن أرضاً كانت عربية بلا منازع<sup>(\*)</sup> (ظلت سيناء جزءاً لا يتجزأ من مصر، لأكثر من خمسة آلاف سنة). وتطورت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين من مجرد التهاب إلى ورم خبيث، فقد كان هناك عشرات الآلاف من اللاجئين الجدد، الذين تدفقوا على الأردن، ولبنان، ومصر، وسوريا، وآلاف أخرى من الفلسطينيين أصبحوا يعيشون تحت الاحتلال الإسرائيلي المسلح. وكانت النتيجة المباشرة الفورية هي توسع انتشار منطقة التحرير الفلسطينية، وزيادة هائلة في نطاق وكم الأعمال الإرهابية التي قام بها الفلسطينيون التعساء. لقد فازت إسرائيل ولكنها في سبيل ذلك ضاعفت مشاكلها بشكل مريع، وأجلت - إلى أجل غير مسمى - اليوم الذي يمكنها فيه أن تتعايش في سلام مع جيرانها العرب. وبالرغم من ذلك، كان الإسرائيليون مؤمنين بأن الأرض تعنى الأمن، ولذا رفضوا أن ينسحبوا إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧.

(\*) قبل ١٩٦٧، احتلت إسرائيل أرضاً كانت، في وقت من الأوقات، جزءاً من فلسطين - الواقعة تحت الانتداب البريطاني.

في تلك الأثناء، أعلنت فرنسا - رضوخاً لمطالب الدول العربية البترولية - أنها فرضت حظراً على كل مبيعات الأسلحة إلى الشرق الأوسط؛ بل إن «ديجول» منع تسليم ٥٠ طائرة ميراج إلى إسرائيل، كانت قد سبق طلبها وسداد ثمنها بالفعل. أما روسيا فأسّرت بإرسال طائرات إلى سوريا ومصر. وفي ظل تلك الظروف كان جونسون يواجه ضغوطاً حادة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي وجد فيها رئيس أمريكي أن عليه أن يختار بين إمداد إسرائيل بأسلحة على نطاق واسع\*، وبين التعرض للعواقب السياسية الداخلية، التي قد تنتج عن خسارة إسرائيل لتفوقها العسكري. وقرر جونسون أنه يجب أن يؤيد إسرائيل، وأصبحت الولايات المتحدة المصدر الرئيسي لأسلحتها المتقدمة، حيث تم عقد صفقة في ١٩٦٨ تم بمقتضاها بيع خمسين طائرة فانتوم ٤٥ لإسرائيل (طائرة محاربة - قاذفة للقنابل، أسرع من الصوت).

أما العرب الذين كانت هزيمتهم شنعاء فقد بدأوا يتفهمون ببطء. وفي يوليو ١٩٦٧، رفضوا مشروع قرار أعدته الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ليعرض على الجمعية العامة للأمم المتحدة. وطالب القرار بانسحاب إسرائيل من كل الأراضي التي احتلتها بعد ٤ يونيو، وحث كل الأطراف على الاعتراف بحق كل منها في الاحتفاظ (في أمن وسلام) بدولة قومية مستقلة، لقد رفض العرب الاعتراف بوجود إسرائيل كدولة لها سيادة، ولكنهم تخلوا ضمناً عن المطالبة بالقضاء على الصهيونية، وعاهدوا أنفسهم على حل المشكلة بالجهود الدبلوماسية. وفي أغسطس رفعوا الحظر عن شحنات البترول إلى الولايات المتحدة وبريطانيا، وفي أكتوبر قامت القاذفات المصرية بإغراق مدمرة إسرائيلية، وقامت إسرائيل بتدمير اثنين من أهم معامل تكرير البترول المصرية. وعند ذلك الحد كان كلا الجانبين قد عانى بما فيه الكفاية، وطلبا تدخل مجلس الأمن، ليفرض وقف إطلاق نار حقيقياً.

(\*) قامت الولايات المتحدة ببيع صواريخ أرض - جو مضادة للطائرات لإسرائيل في ١٩٦٢، ودبابات باتون في ١٩٦٥، وسكاي هوك ١ - ٤ في ١٩٦٦.

كانت النتيجة هي قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الشهير، الذي تولى صياغته اللورد كارادون، من بريطانيا العظمى، وتمت الموافقة عليه في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧. وكان القرار ٢٤٢ وثيقة منصفة، حاولت أن توفق بين المصالح الحيوية للأطراف المتنازعة. فبالنسبة لإسرائيل تعهد القرار بالسلام الموعود مع جيرانها، وحدود آمنة معترف بها، وحرية الملاحة في المياه الإقليمية. وبالنسبة للعرب تعهد القرار بجلاء اليهود عن الأراضي المحتلة، وإيجاد وطن قومي للفلسطينيين. ووافق العرب وإسرائيل على القرار ٢٤٢، ولكن كان مفهوم إسرائيل أن توقيع معاهدات سلام حاسمة ومضمونة، يجب أن يسبق أى انسحاب، بينما أصر العرب على أن قرار ٢٤٢ كان معناه أن الانسحاب التام لإسرائيل، يجب أن يسبق أى تحرك سياسى.

وهكذا.. أصبحت أهم نتيجتين لحرب الأيام الستة، - التي فسرها أغلب الأمريكيين والاسرائيليين على أنها نصر كبير لإسرائيل - هما: الاحتلال الإسرائيلى لأراضى العرب، وخلق قومية فلسطينية فائزة ومتعصبة. ولن يهدأ العرب حتى يستردوا أراضيهم، ولن يهدأ الفلسطينيون حتى يحصلوا على دولة قومية خاصة بهم.

كانت هناك نتيجة ثالثة للحرب، وهي الفرور العسكرى الذى سمح للإسرائيليين بأن يشعروا أنه يمكنهم تجاهل تلك المخاطر، دون التعرض للخطر. وبدأوا يفكرون فى أنفسهم على أنهم الشعب الذى لا يقهر، وشاركهم فى ذلك مراقبون آخرون منهم وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وزادت قوة تلك الانطباعات، عندما بدأ نيكسون فى ١٩٧٠م فى بيع أسلحة لإسرائيل على نطاق لم يسبق له مثيل على الإطلاق. والنتيجة الرابعة للحرب كانت دفع أكثر الدول العربية اعتدالاً إلى الكتلة المعادية لإسرائيل، بمنتهى القوة؛ بسبب الأراضى المحتلة ومشكلة فلسطين، وبسبب استحواذ إسرائيل على المدينة القديمة للقدس، التى يعتبرها المسلمون مدينة مقدسة، مثلهم مثل اليهود والمسيحيين. واتفق أغلب العرب على أن إسرائيل، يمكنها أن تحصل على السلام أو الأرض، ولكن لن يمكنها أن تستمتع بالاثنتين معاً.

لكن، كانت فيتنام هي مصدر الألم المبرح الذي عانى منه ليندون جونسون، وفي واقع الأمر الألم المبرح الذي عانت منه أمة بأكملها. ومنذ ١٩٦٥ وفيما بعدها، أثارت فيتنام التساؤلات القديمة، الخاصة بمركز الولايات المتحدة في العالم، وهي تساؤلات كانت قد رقدت في سبات، منذ الفترة التي أثارها السيناتور «تافت» - لأول مرة - رداً على مبدأ ترومان. لقد استدعت الولايات المتحدة لسداد قيمة بوليصة تأمين، حررت في سنة ١٩٤٧، لصالح أوروبا، وامتدت خلال سنوات ١٩٥٠ - ١٩٥٤ لصالح آسيا، وثبت أن الثمن فاق المتوقع بكثير جداً. في نهاية الأمر، بدأ التراجع في الالتزام بسياسة الاحتواء الذي كان سائداً في كل الولايات المتحدة تقريباً. وانطلق أعضاء مجلس الشيوخ والمفكرون ورجال الأعمال، وملايين المواطنين في شن هجوم خطير على بعض الأركان الأساسية للسياسة الخارجية الأمريكية خلال الحرب الباردة؛ خاصة فيما يتصل بتعريف المصالح الحيوية الأمريكية، ونظرية «الدومينو». وكان الاتجاه السائد هو اعتبار المصالح الحيوية الأمريكية على أنها أي منطقة كان للولايات المتحدة فيها نفوذ سياسى أو اقتصادى أو عسكري، وهو ما كان معناه أن المصالح الحيوية الأمريكية دائماً تتحرك للخارج، وهو اتجاه لم يلق كثير من الاعتراضات الخطيرة، حتى فيتنام. وبحلول ١٩٦٨ وجدت وزارة الخارجية - لأول مرة من أواخر الأربعينيات - أن عليها أن تدافع عن تعريفها للمصالح الحيوية.

في فيتنام، أجبر الشعب الأمريكى على مواجهة ثمن سياسة الاحتواء. وفي سنة ١٩٦٥، كان معظم الأمريكيين متفقين على أنه كان من الضروري تطوير الصين وروسيا عسكرياً، وعلى أن الولايات المتحدة كانت لها مصالح حيوية في أوروبا الغربية، واليابان، وأمريكا اللاتينية، ومناطق معينة في الشرق الأوسط، وأن على الولايات المتحدة أن تفعل ما تراه ضرورياً لمنع خضوع أى من هذه المناطق للسيطرة الشيوعية، وأن حماية هذه المناطق تتطلب الدفاع عن المناطق المحيطة بها. وكان هذا

هو التصعيد الحقيقي، تصعيد ما اعتبرته الولايات المتحدة مصالحتها الحيوية. كما كان من المفترض أن الاحتياجات الأمريكية كانت تتضمن الاستقرار والنظام في كافة أنحاء العالم، والذي كان يعنى - فعلياً - المحافظة على الوضع الراهن. كانت هذه هى الأهداف العامة العريضة لكل رؤساء الحرب الباردة، وكان ترومان وإيزنهاور وكينيدى على استعداد للمجازفة بدفع الثمن المطلوب للمحافظة على تلك الأهداف، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة، وكان سوء حظ جونسون هو الذى أوقعه فى فيتنام.

وفى الحقيقة، اختلف التدخل فى فيتنام عن التدخل فى جمهورية الدومينيكان من حيث التكلفة فحسب. ومن وجهة نظر جونسون لم يكن التدخل فى فيتنام هو إساءة تطبيق لسياسة سليمة، وإنما كانت إحدى النتائج المحتملة والواردة ضمنياً دائماً فى سياسة الاحتواء، وكان الرئيس يؤكد دائماً على أنه كان - فقط - يسير على خطى ترومان وإيزنهاور وكينيدى، ولم ير أبداً أى سبب منطقي لمناقشة الافتراضات الأساسية.

لكن آخرون رأوا غير ذلك. لقد أخذ الالتزام الأمريكى يتزايد من عشر بلايين دولار، إلى عشرين بليون دولار، إلى ثلاثين بليون دولار سنوياً، ومن ١٥٠,٠٠٠ إلى ٣٠٠,٠٠٠ إلى ٥٠٠,٠٠٠ رجل وأكثر. ومع زيادة الخسائر فى الأرواح، واستمرار سيل القنابل على النساء والأطفال فى شمال وجنوب فيتنام بدأ نقاد جونسون يتساءلون، ليس فقط عن فيتنام، وإنما كذلك عن سياسة الاحتواء ذاتها. وأصبحت تلك التساؤلات أكثر قوة بسبب حالات الشغب التى انتشرت فى المدن الأمريكية، وتلوث الهواء والماء واستمرار العنصرية، وتمرد الشباب على التجنيد. إن طلبة الجامعات - فى الخمسينيات - لم يناقشوا سياسة الاحتواء لأسباب عديدة. ولكن من الأرجح أن أهمها كان أن هذه السياسة - بعد حرب كوريا - لم تتضمن ذبح آلاف المدنيين، وموت آلاف الشباب الأمريكى، وتبديد بلايين الدولارات. فى نهاية الستينيات - ومع استمرار الحرب فى فيتنام بلا نهاية - بدأ الطلبة وغيرهم

يتساءلون، ليس فقط عن الحرب في فيتنام، وإنما الأهم من ذلك نوعية المجتمع الذى يمكن أن يدعم مثل هذه الحرب. لقد أدى ذلك الى فحص كل أوجه الحياة الأمريكية؛ مما دفع الطلبة إلى الإيمان بأنهم يعيشون فى مجتمع شرير قمعى، يستغل الأجانب والأمريكيين على السواء.

ومع ذلك، لم يكن تمرد طلبة الجامعات ذا مغزى مباشر مثل التساؤلات الأعم، التى أثارها رجال أكبر سناً، كانت لهم مصال فى المجتمع، وملتزمين بالمحافظة عليه. لقد توصل عديد منهم إلى أن سياسة الاحتواء، والتعبير عن تلك السياسة بالتحديد فى فيتنام، لم يكن ينقذ الولايات المتحدة بل أصبح يدمرها. فعادوا الى رؤية أقدم للولايات المتحدة، والتى كان أحسن من جبر عنها «لينكولن» فى «جيتسبورج»، الذى رأى أن مهمة الولايات المتحدة، هى: ضرب المثل الأعلى للعالم. لقد كتب «والتر ليبمان» قائلاً «يمكن لأمریکا أن تمارس أعظم نفوذها فى العالم الخارجى، بأن تثبت بأن أكبر وأكثر المجتمعات الحديثة تعقيداً، يمكن أن تحل المشاكل الحديثة. وعندئذ... يمكن أن يرى العالم أن كل ما يتصارع عليه يمكن حله. إن القدوة - وليس التدخل وقوة السلاح - كانت الأداة التاريخية للنفوذ الأمريكى على البشرية، ولم يحدث أبداً من قبل، أن كان إدراك هذه الحقيقة ضرورياً وملحاً أكثر من الآن». وأضاف السيناتور «فولبرايت» قائلاً: «فى هذا العصر، عصر القومية والأسلحة النووية، لم يعد العالم بحاجة الى قوة استعمارية جديدة، ولكن هناك حاجة ماسة الى زعامة أخلاقية، وأعنى بذلك زعامة قدوة جديرة بالاحترام». ولكن بالنسبة لجونسون، كان من مصلحة الولايات المتحدة ومن واجبها أن تستخدم القوة العسكرية لوقف انتشار الشيوعية، سواء فى جمهورية الدومينيكان، أو فى فيتنام.

ووافق على ذلك مستشاروه لشؤون السياسة الخارجية، والمعينون من قبل كينيدى بلا استثناء؛ بزعمانية وزير الخارجية «راسك»، الذى كانت حجته، التى ساقها علناً وسراً: أن الصين كان لها دور نشيط فى ترويج وتدعيم الحرب فى فيتنام، وهو ما كان

مشابهة في رأيه لاعتداء هتلر على أوروبا. وقد عبر «تاونسند هويز» وكيل الوزارة للقوات الجوية عن اتجاه «راسك» قائلاً: «باستخدام تعبيراته المنتقاة دائماً والبليعة في بعض الأحيان.. كانت آسيا تبدو كأنها أوروبا، والصين كانت إما روسيا الستالينية أو ألمانيا الهتلرية، وكان السيتو إما ناتو أو التحالف الأعظم للحرب العالمية الثانية». وكان جونسون يردد أفكار «راسك» لقد كتب «فيليب جيلين» قائلاً «إن جونسون - من وراء الكواليس - كان قادراً تماماً على إبلاغ أحد أعضاء مجلس الشيوخ المهتمين بالشؤون الخارجية، أنه «إذا لم نوقف الجيش الأحمر في فيتنام الجنوبية، سيكون غداً في هاواي، وسيكون الأسبوع القادم في سان فرانسيسكو».

كانت هناك صعوبة واضحة في هذا المدخل، صعوبة متأصلة في صلب سياسة الاحتواء. وإذا كان الخطر منتشرًا بالقدر الذي أشار إليه «جونسون» و«راسك»، وإذا كانت المخاطرة تشمل الكون فعلاً، كما كانا يدعيان، إذن فما الجدوى من وراء قتال ذيل الأفعى مع عدم المساس برأسها؟ كان التبرير الوحيد المعقول لموت خمسين ألف جندي أمريكي، وضعف ذلك العدد عشرين مرة أو أكثر من الفيناميين، هو الانتصار الذي كان معناه فصل رأس الأفعى في بكين. ولكن لم يجرؤ أحد على المجازفة بمد الحرب إلى الصين أو حتى هانوي (باستثناء الجو)، لقد كانت هناك أوجه اختلاف بين حرب فيتنام وحرب كوريا، كان أهمها أن الإدارة الأمريكية لم تحاول أبداً أن تحرر فيتنام الشمالية. ومع ذلك، إذا لم تقم القوات الأمريكية باحتلال هانوي ذاتها، لكان باستطاعة فيتنام الشمالية «والفيث كونج» أن يستمروا في الحرب لفترة طويلة جداً. لقد عجز القصف بالقنابل عن إلحاق الضرر بالمصدر الذي كانوا يحصلون منه على المواد الاستراتيجية؛ حيث كان ذلك المصدر في الصين، بل بدرجة أكبر في روسيا، ولم يكن بإمكان القوات الجوية الأمريكية أن تقوم - جدياً - بتمزيق خطوط مواصلات تعتمد - إلى حد كبير - على القوافل وراكبي الدراجات، كما لم يكن بإمكان الولايات المتحدة أن تفرض رسوماً غير مقبولة على

الطاقة البشرية أو الموارد المادية للعدو في ميدان المعركة؛ فإن قوات «الفيث كونج» كانت تنسحب إلى الغابات كلما أرادت أن تقلل من خسائرها، أو كانت تعبر الحدود إلى كامبوديا أو لاوس، كلما أرادت أن تتجنب مزيداً من المعارك.

لم يكن الانتصار في الحرب ممكناً كما كان تدفق القوات الأمريكية المقاتلة يعنى عدم الهزيمة. لقد رفضت هانوى البدء في المفاوضات، إلا بعد توقف القصف بالقنابل، وبعد أن تتعهد الولايات المتحدة بسحب قواتها، دون أن يتم ذلك على أساس إجراء انتخابات تحت إشراف حكومة سايجون. ورفضت الولايات المتحدة بدورها البدء في المفاوضات إلا بعد أن «تتوقف هانوى عن العدوان»، وذلك بأن تسحب قواتها ودعمها المادى لقوات «الفيث كونج»، كما رفضت أن تسحب قواتها، إلا بعد تأكدها من بقاء حكومة سايجون في السلطة، حيث كان محور الحرب - أساساً - هو من يتولى الحكم في سايجون. ونظراً لأن كلا الجانبين رفض أن يستسلم؛ فقد كانت الولايات المتحدة ملتزمة بالاستمرار بالحرب في الشرق.

وفي نفس الوقت، انقلب الليبراليون (من أنصار سياسة كنيدي) على «جونسون»، ولو أن استياءهم من أسلوبه كان بنفس قدر اعتراضهم على سياسته. وبدأ المحبون للسلام «الحمائم» في مجلس الشيوخ - في عقد اجتماعات متكررة للتذمر من الرئيس وكانت تلك الاجتماعات - مثل ما كانت البيانات التي كانوا يدلون بها - تميل الى عرض القضايا بطريقة شخصية. لقد نقل عن السيناتور «إيوجين ماك كارثي» - من «مينيسوتا» - أنه قال في إحدى الجلسات الخاصة: «لدينا رجلٌ جامع في البيت الأبيض وسيكون علينا أن نتعامل معه بهذه الصفة»، كما أن السيناتور «البرت جور» - من تينسي، وصف جونسون بأنه «رجلٌ يائس، يقودنا إلى دخول الحرب مع الصين، ويجب علينا أن نمنع وقوعها».

لقد غفل معظم النقد الذي وجه الى «جونسون» عن إدراك النقاط الأساسية؛ لقد كان جونسون متوهجاً بطبيعته، كما أن ردود أفعاله كان مبالغاً فيها، وكان

مخطئاً إلى النظر في الأمور بطريقة شخصية - مثلما فعل المؤيدون للسلام «الحمام» - ولكن سياسته كانت ببساطة - كما أشار هو في كل فرصة ممكنة - ثمرة منطقية للسياسات التي اتبعها من سبقوه.

على أية حال، في سنة ١٩٦٧ بدا أن الأسلوب كان هو القضية، ووصف المؤيدون للسلام جونسون بالوحشية، ووصفهم هو بالجبن، وكان مغرماً بإعلان «أنا رئيسكم الوحيد»، وكان يعنى بذلك أن أى نقد يوجه إليه، فهو - ضمناً - عمل غير وطني، وكان يطلب من النقاد القليلين الذين ذهبوا الى البيت الأبيض لمقابلته: «لماذا لا تنضموا إلى الفريق؟». وفي نوفمبر سنة ١٩٦٦، أبلغ جونسون الضباط الذين تجمعوا في نادي الضباط، في خليج «كامرانة»: «عودوا الى الوطن» حيث يوجد فراء الراكون (Coonskin) على الحائط. ولأن «دين راسك» ظل يردد كلامه عن ميونخ ومحاولة استرضاء هتلر، فسرعان ما التقط «جونسون» نفس الفكرة، فربط بين محبي السلام «الحمام» و«تسامبرلين»، وبين الادارة الأمريكية و«تشرشل». أما «فولبرايت» فكان عنده رد خاص به: «إننا نعامل هذه الدولة الصغيرة، كما لو كنا في مواجهة روسيا والصين معا».

وتصاعدت المعارضة، ولكن ربما كان جونسون محقاً في يقينه بأن قوة تلك المعارضة كان مبالغاً فيها، ولم يحدث أن خاضت الولايات المتحدة حرباً من قبل، دون مواجهة نزاع داخلي. وسيكون مستحيلاً إثبات أن استياء مؤيدي السلام «الحمام» من فيتنام كان أكثر عمقاً، أو صراحة من استياء «الهيوج Whig\*» من حرب المكسيك، أو من معارضة «الكوبرهيدز Copperheads\*\*» للينكولن، أو حتى المعارضة التي واجهها روزفلت قبل «بيرل هاربر». ولم يكن هناك - على أى

(\*) «الهيوج Whig»: عضو في حزب أمريكي، أنشئ ١٨٣٤، لمقاومة الحزب الديمقراطي ثم خلفه الحزب الجمهوري أوائل عام ١٨٥٤ (المترجم).

(\*\*) «Copperhead»: أمريكي من أبناء الشمال، تعاطف مع الولايات الجنوبية، خلال الحرب الأهلية (المترجم).

حال - موقف مباشر وصريح لمؤيدى السلام «الحمام»، وإن اتفق نقاد جونسون - من اليساريين - على ضرورة وقف قصف فيتنام الشمالية بالقنابل، ولكن فيما عدا ذلك عجزوا عن أن يجمعوا شملهم، وراء برنامج عمل مشترك؛ فقد أراد بعضهم الانسحاب من فيتنام كلية، معترفين بالهزيمة، ولكن مع الاستمرار فى السياسة العامة للاحتواء، وكان انتقادهم موجهاً إلى الوسيلة التكتيكية: إن الولايات المتحدة قد بالغت فى انتشارها أكثر من اللازم. وأراد البعض الآخر استمرار الصراع فى فيتنام الجنوبية - لقد ظلوا مؤيدين - لسياسة شاملة للاحتواء واعترضوا فقط على قصف فيتنام الشمالية بالقنابل. بينما كانت هناك مجموعة أخرى من مؤيدى السلام، أخذ عددها يتزايد، لم تكن تنادى بالخروج من فيتنام فقط، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك، وطالبت بإعادة دراسة سياسة الاحتواء كلها. وبالتالي سمحت الاختلافات العميقة - داخل المعارضة - لجونسون بأن يتمسك بأسلوبه.

واجه جونسون موجة النقد المتزايد بين عامة الشعب، بترديده أن التوقعات كانت تشير إلى أن النصر بات وشيكاً. وكان «روستو» فى طليعة تلك الحركة، حيث أخذ يزود الصحافة - بمنتهى الحرص - بأرقام منتقاة من أجهزة الكمبيوتر فى فيتنام، أثبتت أن الإدارة الأمريكية كانت فى قمة الطريق إلى النصر. وكان معدل خسارة الأسلحة ٤,٧ إلى ١ لصالح الأمريكين، فى مقابل ٢ إلى ١، وهو المعدل الذى لم يكن فى صالح الأمريكين فى ١٩٦٣، كما أن عدد الفارين من جيش العدو ارتفع من ٢٠,٠٠٠ فى ١٩٦٦ إلى ٣٥,٠٠٠ فى ١٩٦٧، بينما انخفض عدد الفارين من جيش فيتنام الجنوبية من ١٦٠,٠٠٠ إلى ٧٥,٠٠٠. كما أن قوات «الفيث كونيغ» أصبحت عاجزة عن شن أى هجوم واسع النطاق. أما عدد السكان، الذين كانت تسيطر عليهم حكومة سايجون، فقد قفز من ٨ إلى ١٢ مليوناً، أو تقريباً ٧٥٪ من تعداد سكان الجنوب.

لقد أصرت حكومة جونسون على أن الاستخدام الساحق للقوة الأمريكية أخذ يحدث تأثيرات متراكمة، سوف تتصاعد حتى تجبر هانوى و«الفيث كونيغ» - بمرور

الوقت - على الخضوع. لقد كانت خسائر العدو في الجنوب تقترب من الكارثة، ومع ذلك فإن هانوى لم تعد ترسل مزيداً من القوات من فيتنام الشمالية إلى فيتنام الجنوبية لتعوض الخسائر، لأن حملة القصف في الشمال أدت إلى إعاقة أعداد ضخمة من العمال والقوات. وأوضحت الوثائق التي تم الاستيلاء عليها انخفاض الروح المعنوية للفييت كوخج. كان هناك ضوءاً في نهاية النفق، لقد بدأت الولايات المتحدة تفوز في حرب الاستنزاف.

عندما فشل التحليل الجريء، الذى أشاعه «روستو»، فى إقناع النقاد بالصمت... لجأ جونسون إلى حيلة أكثر إحكاماً؛ إذ طلب من الجنرال «وست مورلاند» الحضور إلى الولايات المتحدة، ليشرح كيفية إحراز النصر وتوقيته. وفى نادى الصحافة القومى، أعلن «وست» أنه «على ثقة تامة من أن العدو الذى كان منتصراً فى سنة ١٩٦٥، صار اليوم خاسراً للحرب بكل تأكيد»، ثم أعلن فى حديث للتليفزيون إنه يتوقع إحراز النصر خلال عامين. وفى نفس الوقت، لجأ جونسون الى تكثيف القصف بالقنابل ليكون بمثابة آخر دفعة قوية تجبر «هوشى مينه» على الاستسلام، وفى منتصف نوفمبر سنة ١٩٦٧، بدأت أعنف سلسلة من الهجوم على جميع منشآت «هانوى - هايفوخج».

وساد كل ذلك خيط رفيع: إن إحراز النصر العسكرى كان ممكناً وضرورياً. ورغم أن الإدارة الأمريكية قدمت الحرب على أنها محدودة النطاق والهدف، إلا أن النتيجة الوحيدة المرضية للولايات المتحدة - فى الواقع - كانت الاحتفاظ بحكومة سايجون فى السلطة، والذى كان معناه إحباط كللى لهانوى و «الفيث كوخج». لقد عبر «تاونسند هوبز» عن ذلك قائلاً إن الولايات المتحدة كانت ملتزمة «بالحفظ وتثبيت وضع حكومة فى الجنوب، لم يكن بقاؤها ممكناً دون وجود عسكرى أمريكى واسع النطاق، تلك الحكومة - بحكم تكوينها - استبعدت الخصم الرئيسى من كل أشكال المشاركة السياسية، وبذلت كل جهدها لاعتقال كل من دافع عن فتح حوار مع جبهة التحرير الوطنية، حتى من غير الشيوعيين».

لم يكن من الممكن أن يكون الوضع مختلفاً عن ذلك، الاحتواء كان يعني الاحتواء. إن أى حل وسط كان سيؤدى إلى اشتراك جبهة التحرير الوطنية فى سياسة فيتنام الجنوبية، وكان ذلك يتضمن حدوث مجازفة شديدة الخطورة وهى احتمال فوز الشيوعية فى نهاية الأمر، بما يعنى أن الشيوعيين لم يتم احتواؤهم؛ أى إن كل التضحيات التى بذلت ذهبت هباءً. إن «هوبز» أوجز الموقف قائلاً: «باختصار إن الرئيس جونسون ومستشاريه المقربين قد حددوا أهدافنا القومية وخاضوا الحرب، بحيث أن قبول تسوية سياسية كحل وسط، كان يعنى هزيمة مدوية لسياسة الولايات المتحدة ومكانتها فى العالم.. وهو ما لم يكن من الممكن مواجهته، كان النصر العسكرى هو الحل الوحيد للخروج من الأزمة». وطوال سنة ١٩٦٧، ومع بداية سنة ١٩٦٨، أصرت الإدارة الأمريكية على أن النصر كان ممكناً.

ثم جاء عيد «تيت». إن الهجوم الشيوعى الذى شن فى فبراير ١٩٦٨ - أثناء العطلة الدينية لعيد «تيت» - فجأة وبسرعة وحشية، أثبت بإسلوب مباشر - وإن كان مؤلماً - خطأ كل ما قاله «روستو»، و«وست مورلاند»، وكل ما قرره الحاسب الآلى. لقد نجحت قوات «الفيت كونج» فى طرد الأمريكيين، وجيش فيتنام الجنوبية من مناطق فى الريف الى داخل المدن - فتحول برنامج التهديم الى مجزرة - بل واستولت على بعض المدن. وفى سايجون تمكنت فرقة انتحارية من «الفيت كونج» من السيطرة المؤقتة على أراضى السفارة الأمريكية. لقد اتضح أن الأمريكيين لم يكونوا مسيطرين على الموقف؛ إنهم لم يكونوا فى سبيلهم الى احراز النصر؛ إن العدو احتفظ بقوة وحيوية هائلة.

لقد اتضح من الرد الأمريكى على ما حدث فى «تيت»، جوانب كثيرة من الرؤية الأمريكية للحرب، والموقف الأمريكى من شعب فيتنام. وأحد الأمثلة على ذلك ما حدث فى العاصمة الثقافية القديمة لـ «هيو»، والتى كان «الفيت كونج» قد استولوا عليها. إن الأسلوب الذى اتبعه الأمريكيون لتحرير تلك المدينة أثار ذهول

«دافيد دوجلاس دونكان»، وهو مصور عسكري شهير، له خبرة طويلة في الحروب، «إن الأمريكيين سحقوا القلعة، وحولوا المدينة إلى تراب - تقريباً - بالهجمات الجوية التي شنوها، وسباق التابالم، وطلقات المدفعية والبحرية، وطلقات المدافع المباشرة من الدبابات والبنادق... لقد كانت عملية استخدمت فيها كل الطاقات لاستئصال وقتل كل جندي من جنود الأعداء. إن تلك المجزرة والظمن الذي تكلفته، وقسوة العملية كلها تصيب الإنسان بالدوار.» لقد علّق أحد ضباط المدفعية، قائلاً: «اضطررنا إلى تدمير المدينة لإنقاذها».

إن الإدارة الأمريكية حاولت أن تتظاهر أن «تيت» كانت آخر نفس يلهته العدو، ولكن ذلك التفسير لم يجد كثيراً من الأنصار. وفي ذلك الوقت، قام السيناتور «ماك كارثي» بتحدى الرئيس - في الحملة المبدئية لانتخابات الرئاسة، في «نيوهامبشير» - وأوشك على هزيمته. وأعلن «روبرت كينيدي» السيناتور الناشئ من نيويورك، اعترامه «دخول الانتخابات. لقد ترك «ماكمارا» الحكومة بعد أن فشل في إقناع جونسون بوقف القذف، ولكن ما أثار دهشة جونسون حقاً كان موقف «كلارك كليفورد» وزير الدفاع الجديد، الذي كان إلتمائه إلى «الصقور» معروفاً في نطاق واسع؛ إذ أنه طلب أيضاً وقف القصف. وهكذا، وجد جونسون نفسه في مواجهة أزمة ثقة في إدارته، وفي مواجهة هزيمة شبه مؤكدة - طبقاً لاستطلاعات الرأي - في حملة الانتخابات المبدئية المنتظرة في «ويسكونسين» - كما وجد أن الجميع قد تخلوا عنه، باستثناء حفنة صغيرة من المتشددین داخل إدارته. بالإضافة إلى ذلك أصيب بصدمة عندما طلب منه «وست مورلاند» إرسال ٢٠٠,٠٠٠ جندي كقوات إضافية إلى فيتنام (مما كان يتطلب استدعاء قوات الاحتياط وتوسيع نظام الخدمة العسكرية). ولمواجهة كل ذلك، قرر جونسون أخيراً أن يغير سياسته العسكرية. وفي مساء الأحد ٣١ مارس ١٩٦٨ أعلن جونسون في التلفزيون أنه قرر وقف قصف فيتنام الشمالية بالقنابل، باستثناء المنطقة الواقعة مباشرة شمال القطاع المنزوع السلاح، ثم ذكر انسحابه من انتخابات الرئاسة؛ مما أصاب الجميع بدهشة.

كانت نهاية مهينة. لقد كان جونسون - بكل تأكيد - أقوى رجل في العالم ومن المحتمل جداً أنه كانت لديه أقوى إرادة وعزيمة. ومع ذلك، فإن عدداً قليلاً نسبياً من «القيث كورنج» قاومت قوته وتغلبت عليها، وأنهكت عزمته، وحطمت إرادته. إن الرجل الذي قدم للأمريكيين السود أكثر مما قدمه أى رئيس منذ «لينكولن»، وجد نفسه متهماً بخوض حرب عنصرية بوسائل عنصرية. لقد أراد أن يجلب الديمقراطية والرخاء الى جنوب شرق آسيا، ولكنه لم يجلب غير الموت والدمار. وفى أوائل سنة ١٩٦٥ كان قد استوعب هو نفسه درسين، أولهما: أن القوة على التدمير ليست هى القوة على السيطرة، وثانيهما: أنه قد وصل الى حدود نفوذه وقوته بل وقد تعداها. وحينما اعتزل الحياة السياسية، وعاد إلى موطنه المحبب إليه (المناطق الجبلية فى أواسط تكساس)، ظل هناك سؤال عالق بذهنه بلا إجابة: ما الفترة التى ستستغرقها بلاده، لكى تدرك أنها - أيضاً - قد وصلت إلى حدود قوتها ونفوذها، بل وتعدتها؟

